الثالوث
العجاف

تأليف

عائض السبيعي

الثالوث العجاف

عائض السبيعي

READ PUBLISHER
طباعة -نشر-ترجمة-تسويق

الطبعة الأُولى

1444هـ - 2024م

ISBN 978-977-783-478-0

READ PUBLISHER
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب:: الثالوث العجاف
اسم الكاتب :: عائض السبيعي
رقم الإيداع :: ٢٠٢٤ / ٠٢٢٢
الترقيم الدولي :: 978-977-85985-7-5

READ PUBLISHER

جمهورية مصر العربية

هواتـــف:: ٠٠٢ / ٠٤٨ / ٣٥٦٥٦٥٢
المـــبيعات:: تحويل داخلي ١٣
إدارة النشر:: **+201000774595**
إدارة التسويق:: **+0201001253496**

ReadPublisher.com

الفصل الأول

في صيف يونيو من عام ١٩٧٥، صحا جمعان من سباتٍ عميقٍ، وإذا به يعبس عبوسـاً خفيًّا لا يحاول إظهاره، فالعبوس اليوم أولى لفقيد الأمة، فما زالت الشعوب في عِدة الحزن الجائرة لفقدانهم رجلاً من رجالات القيادة ودهاة السياسة، جلالة الملك فيصل الذي مر على حادثة اغتياله ثلاث أشهر، رغم ذلك فلا عنجهية أن تعاسة وفرح الإنسان بعد صحوته من نومته لا يتزامن إلا مع كابوس عابر يرعبك فتفضل نسيانه أو حلم سرمدي تتذكره عند انطوائك على نفسك، الحلم الأول يذهب إلى حافة النسيان، بينما الحلم الأخير المرغوب فهو سرمدي كرؤية فقيدك أو ارتقائك إلى أعلى السلم الاجتماعي كصيرورتك شيخًا على قومك. لقد تمادى عليه الكابوس حتى وصل إلى أعتى ما تعاديه النفس البشرية، وربما في هذه الحالة لن يُنسى.

جمعان السبيعي من قبلية الزكور القاطنين في بلدة الخرمة، رجل أعزب في السابعة والعشرين من عمره وعندما يُسأل عن سبب تأخيره للزواج؛ يعلل بأن زمنه ليس كما كان - ربما يعزى الأصل في هذه التعميم العمري للزواج لمن هم في الثامنة عشر وأدنى؛ هو نسيان البشر آنذاك لمفهوم المراهقة بل رفضهم لها، والتاريخ يشيد بفتيان في عمر الزهور حققوا المكاسب العظيمة رغم صغر سنهم،

مثل أســـامة بن زيد الذي ولاه النبي زمام قيادة جيش في غزوة الروم من السـنة الهجرية الحادية عشـرة، وكان فقط في الثامنة عشـرة من عمره وقد انجز منجزات مهيبة – أما وصـــفه فكان قمحي اللون لأصـــوله العربية العاربة، ولطالما فاقت أحلامه الرقعة الجغرافية القاحلة القاطن بها، يعمل في ســـلك الحرس الملكي برتبة وكيل رقيب وهو السـلك المسـؤول عن حراسـة العائلة الملكية وحاشـيتهم، وكان من المعتاد لأســـرته من أبيه وأمه وإخوته اســـتقباله بتفانٍ في الإجازات الممنوحة له ســـنويًا، لذلك كان يكد نفســـه في الترحال ســـنويًا من مدينة الرياض إلى بلدة الخرمة بســـيارته الرفيعة التي اصـــطلحت عليها العامة بالبهبهاني- جمس رفيع من غماره واحدة وحوض فضـفاض- ولعل المسـافة الشـديدة المدى كان يسـقط ثقلها مقابل سرور وابتهاج أسرته بعودته.

كان يدخل البهجة إلى قلب كل ما عاصــره، وعندما يكلم الحجر فإنه يســـتجيب له من قدرته ورفعته في الحديث مع العامة، كان مثالاً على الذكاء الاجتماعي البحت، ولعل رتبته الحالية كانت نتاجًا يعزى إلى هذا النبوغ الاجتماعي وليس بتقادم الزمن في عمله.

هذا الحلم سيغير مجرى التاريخ وربما حياته للأبد، للأحسـن أو للأســوأ، فليســت كل الأحلام عابرة وربما السـعي خلفها يعزز من وقوعها وعلى هذا بعض الأحلام يجب دفنها ولو تبارى حُسنها!

اليوم هو اليوم الموعود، تزامن العبوس مع إجازة العساكر السنوية، كابوس خبيثٌ ورحلة بقيقة ستأخذ منه ثماني ساعات عجاف. أستفاق من صحوته وتوجه إلى دورة المياه للاغتسال وما زال الحلم لاصقًا بذهنه يأخذ به يمنةً ويسرة، يحاول نسيان حلمه البغيض.

في صدد هذه الملحمة الذهنية وإذا بزميله في السكن يدفع بنفسه مع الباب حاملاً معه كيسًا من الإفطار وكوبين من حليب الشاي، قعدا وجهًا لوجه وبدآ بتناول الأكل، محسن صديقه القريب وزميله الكريم لطالما دفع مكارم نفسه وأظهر خصلة الكرم التي يتميز بها الخلف الأعراب بالتكفل بالفطور أكثر الأيام وصده لأي امرئٍ يحاول الحلول مكانه بالمكرمة؛ يتعجب من انحطاط سجية رفيق السكن وزميل العمل اليوم تحت العادة، خلقه الذي أظهر عليه هيئة المكشِّر وصمته المستمر، سأله عن مغزى ضيقته اليوم، فرد:

- حلم، حلمٌ لم أرَ بمثيله شيئًا.

- إذا كان حلمًا مهيبًا فلا تنطق به، ولكن السعادة لا تأتي إلا مع حلم سليم، وأنا لا أراها فيك اليوم.

- حلمت بحلم يحرم سماعه، لقد تراءى لي حلم على ما وصفتُ الآن، إنه خيال فوق كل التصورات.

- لعلك بحاجة لاستشارة مفسر أحلام، لأن حلمك يتراءى لي أنه تخبطات لا معنى لها تحصــل لعامة البشــر، ولكن لا بأس بالتحقق منه للخاطر، ربما يكون له معنًى حســـن، وقد لا يكون له معنى سوى حلم عابر، وعلى كل حال ذُكِر لي مفسر أحلام يقبع في حي أم الحمام وهو قريب منا، يلقب بالمامون وقد ســُيِّر لي بكثير من مراجعيه أنه كشـــف معجزات وأزال عقبات وحقق أمنيات، ولعله يقدر على كشف هاجسك المتخبط.

- سـأمرّه اليوم مع مسـيرتي نحو الخرمة، فالحي لا يبعد كثيرًا ولا يتعب قويمًا، وسـتكون هذه أول مرة لي أخوض في خضـم عالم التفاسـير. مع أن وصـفك لهذا الرجل كأنك تصـف لي كاهنًا أو عرافًا، المقابلة بيننا سـتكشـف المجهول وتبين المعروف. فمن صـدق كاهنًا فلقد كفر بملة محمد، ولا أرغب بالتجرؤ على هذا الحد.

بعد أن تـأكدت رغبته في مقابلة مفســـر الأحلام رغم تردده البسـيط؛ قرر جمع ثيابه ومسـتلزماته من ملابس وأغراض، والأهم أشمغةٌ من قماش دم الغزال التي أهديت له من أقارب وزملاء له، للتوجه إلى أهله في منطقته الأم وما زال مصـرًا على المرور بمفســـر الأحلام، الذي ستكون استشارته سريعة لا ترتقي لاستشارة طبيب الحداثة الذي يأخذ منك ردحًا من الزمن لِعِلة التحاليل والكشف.

بعد مرور سـاعات على الفطور، غدا الوقت الآن الثالثة عصـرًا، لم يعطِه زميله الكثير من التفاصيل حول موقع المفسر بالتحديد وما

حوله من معالم تدل عليه، ولكن شهرة المامون تغطي على من يجهله، فهو أشهر مفسر في زمانه، وأعلم الناس بخفايا وأسرار الأحلام، لذا كان من المسلَّم به أن يُذاع صيته في المعمورة.

بعد جولة خفيفة حول الحي السكني في درجة حرارة كل يوم تتصاعد لحلول موسم الصيف، سأل أحد المارة عن المفسر:

- أتيت لرجل سُوِّقَ لي أنه ماهر في قراءة الأحلام العويصة، ويدعى بالمامون.

- المامون، نعم، رجل فاق مكانه وعلا زمانه بعرق جبينه، تجد منزله يقبع في شارع المنصورة.

- أمِّن علامات تدل على منزل المامون؟

- المامون يعرفه الجاهل ويراه الأعمى، يسمعه الأصم ويتحدث عنه الأبكم.

غدا حائرًا من كلام الرجل الغامض والذي يتبادر في الذهن للوهلة الأولى أنه شعر، لم تكن إجابة الرجل كافية ووافية، رغم ذلك كان عليه تقبل شعر الرجل الواهي، والتوجه للمكان هذا لعله يجد منزله. وفي لُطفٍ يقارب العشرة دقائق فإذا به يصل لشارع المنصورة، ولكن لا دليلَ ماديَّ على وجوديته، لقد بدأ في التشكيك في حقيقة هذا الرجل الذي ربما يكون أسطورة لا وجود لها، ولكنه أصر على صحة تواجده، مسببًّا ذلك إلى صديقه، وما دام أن الشائعات من طرفه إذًا هي حقائق.

أوقف سـيارته عتيقةَ زمانه وبدأ بتلويح نظره يمنةً ويسـرةً لعله يلمح لوحة تؤثِره إلى مكان البيت، وما زال موقعه مجهولاً بالنسـبة له. توارى لذهنه أن الرجل هذا قد لا يكون موجودًا في هذه المنطقة في الأصـل، ولكن قرر الذهاب والإياب حول الشـارع المذكور لعله يجد منزله الخرافي.

ردحًا من الزمن ولّى، حتى أعتزم على طرق أول باب والسـؤال عن مقبع المامون، جذبه بيت يدل على أن صـاحبه رب أسـرة، طرق الباب طرقتين، فالثالثة كانت طرقة حاسمة لاستجابة المالك:

- أتيت للسؤال عن بيت المامون، فهل لك علم به؟

- لا أعلم عنه شـيء، ولكن إذا أردت موقع بيت مفسـر الأحلام فهو بالزقاق الأخير من حجاجك الأيسر.

تعجب من سمعته وشـهرته، فحتى جاهله أصـبح عارفه في لُطفٍ من الزمن، وكأنه تبرأ إليه وأطلعهُ على شـخصـه. تقبل في النهاية تعليقه وقرر الانصراف وشكره، والذهاب نحو الإحداثية المستجدة – وهو يردد بنفسـه أنه تأخر على موعد سـفره وترحاله – بعجلة حادة.

عندما أقترب نحو الزقاق وإذا برجل على عصـــًا يتحرك بخُطًى ركيكـةٍ وحـذرةٍ في جـانـب الرصـــيف، عنـدمـا لمحـه، أدرك أنـه كفيف، استوعب أن هناك تعرجًا في الرصيف وقد يتأثر الكفيف ويسقط، لذا هرع نحو الكفيف لإنجاده:

- يا عم، طريقك الذي تســير عليه فيه من التعثر قد يجعلك تسقط على جبينك.

- أهلا يا هذا، ظننت أن عصــاي تبصــر أكثر مني، لكنها أصبحت فجأةً لا تفي بحاجتي لتحسس المخاطر، دلني علي ما رأيت ولك نصيب ما تبتغي.

اســتغل مســاعدة الكفيف في طرح طلب حول بيت المؤول، لعله يستحصل من هذا الطاعن في السن ما يفيد:

- تظهر عليك علامات الخبرة، وأظن أنك تعرف بما يهوي هنا من أخبار، فهل سمعت عن المامون من قبل؟

- لم أرهُ بحياتي بســخرية الطبع، ولكن في الحقيقة المامون رجـل ظهرت عليـه علامـات الكبر والنبوغ، عـالم في علم الأحلام وقارئ للطلائع والأسـرار، عندما تراه كأنك ترى شـخصًا قد رأيته من قبل.

- ولكن يا عم، إذ لم تره كيف وصفته كأنك تراه؟

- العمى عمى القلوب لا الأبصــار، فرجل في ريحان شــبابه وعز جذعه يجب أن يدرك هذه الواقعة من الآن فصاعدًا.

- حسنا، أين يقع منزله، سُوِّق لي أنه بين هذا الزقاق - مشيرًا بأصبعه متناسيًا حالة الشائب الكفيف - ولكن مع ذلك هبّ الأعمى لتصحيحه والقول:

- ليس الزقاق بذاته وإنما ما بعد أخدود الطريق تنحو يسارًا وستلمح منزله كما ألمحه بقلبي.

شكره وذهب مع الوصف الجديد إلى الأخدود المتهالك.

سار بين الزقاق الغريب، وإذا بشخص غليظ الصوت يسأل:

- أنت يا رجل، هل يتساوى الغني بالفقير؟

كأنما صُفِع على خده بسماعه لهذا الصوت الرجيم، في عتمة الزقاق وهدوء الكلام وانعدام النوافذ يصدر هذا الصوت مع جملتين مفاجئتين من اللامكان، تبادر في ذهنه أن شخصًا ما كان يتنصت له وربما يكون أحد السكان الطاعن في السن، الذي طالت عليه السنين حتى أشابت حنجرته.

لم يطل الصمت حتى رد عليه:

- تساوٍ في ماذا؟

- لو أعطاك شخصًا ١٠٠ ريالاً، وعلمت أنه من أعيان المتجمع الأغنياء، هل ستشكره؟

- نعم!

- كم تساوي المئة من نصيبه الكلي؟ إن من تشكره على كرمه، لم يعطك إلا الفتات الزهيد، لأنه لن يخسر مثقال ذرة من نعمه الزائلة.

- وهل يختلف العطاء حسب الشخص؟

- نعم في كل الأحوال، الغني والفقير خصيمان في الأرض والآخرة. إن الغني اذا تكلم بكذب؛ صدقوه وقالوا ما نطقت المحال، أما الفقير إذا أصاب قالوا لم يصب وكذبوه ضلالاً. الدراهم يا رجل تكسو الرجال مهابة وجلالة.

- ومن قال أن الغَنَاء في حيازة الدراهم، بل هي اللسان لمن أراد الفصاحة، وهي السلاح لمن أراد القتال.

- الفصاحة بلا درهمين لا تجعل شفتا المرء مكانًا للقول، الفصحاء لا يستمعون إلا لصاحب الجود الذي يكرم من يجالسه.

جدالٌ ونزعةُ رجلٍ كهل وشابٍ متحمس. عمّ الصمت فورًا بعد خاتمة كبير السن. أما الخطر الداهم فكان عنجهية علوقه في الأخدود!

إن جداله مع الرجل ذو الصوت الأجش كان طويلاً لبطء الكهل في الكلام وتردد الشاب في الردود والتأني فيها، لقد أخذا ردحًا من الزمن لا يعلمه أحد، ولكنه بالتأكيد وقت يسمح بمرور الشاب للرصيف الآخر غير أنه لم يصل لنهاية النقطة، مع أنه كان يمشي بخطوات فضفاضة سريعة تجعله يقطع هذا الزقاق في ثوانٍ. أن ما حصل كان لا تفسير له.

وصل أخيرًا للجانب الآخر فور انتهاء النقاش الحاد، وكأنه علق في دوارة منعته من الخروج حتى ينتهي صاحب الصوت الأجش حديثه.

بدأ يعاقب نفسه من الداخل عن سبب عدمية شعوره بثقل الزمن وهو يجادل الكهل، جازمًا بأنه كان يرى الطريق، ولكنه لا يتذكر سبب تأخيره في الوصول! أكان أحد الطرفين يتلاعب بعقل الآخر؟

لم تطل معاتبة النفس حتى أزال غمته وأصر على التوجه نحو المامون وتمنى لو أنه لم يحلم، ومع ذلك دبّ في سيره إلى معروف زمانه.

على الرصيف وبعد موجة من الأسئلة الحائرة في عقله، قرر مناداة إحدى المارات من النسوة لكي تشير له عن منزل منكور زمانه، لعل نسوة المنصورة أعقل من رجالها.

- عذرا يا آنسة، أين يسكن المامون؟

كان السؤال هنا مختزلاً وبدون توضيح للمخاطَبة؛ لعلمه بذيوع صيت المؤول.

مع ذلك لا يبدو عليها أي علامات استجابة. وفي لحظة التفتت عليه بدون قصد، وكان يظن أن الالتفات منها كان مقصودًا، لهذا قعد متلهفًا لردها عليه، ولكن لا حياة لمن تنادي.

حاول إعادة السؤال لعله يلتمس إجابة، ظنًا منه أنها لم تلتقط السؤال:

- منزل المامون، هل تعرفين أي يقبع؟

وفي لحظة عامرة بالسكينة وتحديق مطول مع امرأة مغطاة بالكامل بالسواد من قدمها حتى رأسها، كان مربط الغرابة فيها أنها لا ترد على طوفان الأسئلة.

كل شيء تغير بعد أن أظهرت كتيّبًا ملصوق به قلم، يتوارى لوهلة أنها ستكتب شيئًا طارئًا وهذا حقًا ما حدث، أخذت ردحًا من الزمن حتى سلمت الكتيب إلى القارئ، فقرأ:

- من أختك الصماء والبكماء، لا تؤاخذني إذا تبرأ عليك تجاهلي لك. فاِسألْ ما تبتغي.

- يكتب التالي لها: لا بأس فأنا من يجب عليه لبس ملبس العذر، ولتقليل الكلام عليك؛ هل سمعتي مسبقًا عن المامون، وأين منزله في هذا الحي؟

- ردت عليه بالمكتوب الآتي: مفسـر الأحلام الشـهير، نعم، لطالما أرسلت له رسـائل عن أحلامي حتى يؤولها، والمقابل أجر زهيد على كل حلم، أما عن مكانه، أنما تجده على حجاجك الأيسـر - التفت على يسـاره للتأكد - ولون منزله أحمر غامق، ولكن الزمن سرق بريقه واضعف صبغته حتى صار خافتًا.

شـكرها على حسـن كتابتها، ولباقة كلامها المكتوب، وكان امتنانه أن رفع إشارة السلام بكف اليد.

أنطلق أخيرًا وخطا خطوات المسـتبشَـر حتى وصـل لقعر منزل المفسـر وطرق الباب ولا مسـتجيب له. الذي لم ينتبه له أن الشـمس دخلت مرحلة الشفق واقترب الغسق الذي سيحل معه الليل الدامس، لم يشـغل باله بسـرعة الزمن الجارحة، والوقت القاطع، وإنما أراد الانتهاء من هذا الحلم وتفسيره والترحال لعائلته وسنده في بلدته.

بعد مضـيء وقت ضـيق، لم يجد مجيبًا لذا ذهب لإتمام صـلاة المغرب في مسـجد شـارع الأربعين والقريب من منطقة المنصـورة، وكان قد صلى الظهر والعصر في جوامع مختلفة نظرًا للدّلاّلة الذي كانوا يدلونه من مناطق مختلفة.

أنهى الصـلاة في الصـف الأول من الجماعة ثم حدق عينيه يمنة ويسـرة، حيث الإمام أمامه، وبدأ بالتسـبيح والخشـوع في الأذكار، لقد تزامنت الالتفاتة مع اسـتحضـاره لذكريات أوصـافِ من يبحث

عنه حتى يفسر حلمه، أوصافٌ أدركها من باطن الكلام مع الأعمى ذي القلب البصير، إذ كان الإمام رجلاً ملتحيًا بلحية بيضاء تعطيه مظهر الوقار والنبوغ، وهو المؤذن والإمام بالجامع وخطيب يوم الجمعة. والأهم هو نمطية المظهر حيث الثوب القصير والعمامة بلا عقال فوقها، سنةٌ مصونة.

كانت هذه العلامات الآنية كلها تدل على شخص الرجل المطلوب، لهذا انتظر حتى نهاية الأذكار والتسبيح وهو يؤكد في نفسه على أن المنكور غدا معروفًا، ونادمًا على من قابلهم فلو أنهم ذكروا مؤذن جامع شارع الأربعين...

بعد مرور ربع ساعة قام الشيخ ولحق به، أشار له عن رغبة بالحديث معه:

- شيخنا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هُبَّ لي أنك عليم بما تخفى الأحلام.

- وعليكم السلام، نعم، أنعم الله علينا بمعرفة خباياها. هل تملك نصّ الحلم مكتوبًا؟

مع اقتراب الغسق ومبادرته بإتمام تفسير الحلم إبان تحركهما معًا، تفاجأ بأنه نسي معظم الحلم ولم يبقَ إلا الفتات:

- شيخنا، لم أكتب الحلم على ورق، وإنما غرتني نفسي بأني قادر على حفظه، وصدمت بنسيانه.

- لا بأس، فتات أجزل من لا شيء.

- لو تمنحي وقتًا لاسترجاع معظمه سأدعو لك بالخير، شيخنا.

بادر باستضافته في منزله العتيق الخالي من الحياة في خارجه:

- إذًا، اقدِم على منزلي، لفنجان قهوة. لعل هذا يحمِّي ذاكرتك على الاستحضار.

وافق، وهّمَ بالدخول لبيته، ما لاحظه هو أن للبيت أوصافًا أخرى، سقف المنزل مديد يمنع إطلالة الجيران من التحديق في أهل المنزل، الدهانات من الداخل حية وناصعة أكثر من الصبغة خارج المنزل، مروج يمنةً ويسرةً من المنزل، ربما تكون هذه من طبائع الزهد الازدواجي؛ كن فقيرًا مع الغير وغنيًا مع النفس، اِنصح غيرك بالتشهد وأبناءك بالشهادة.

خارج المنزل وفي لباسه يتبين رجلٌ لا يجد زادًا يسد به ضمور بطنه، ولكن داخل المنزل جنة خضراء؛ تذيب عقل الشاهد.

دخل لحجرة استقبال الضيوف وكانت دعاسات الأحذية وسجاد المدخل من فخر الصناعة التركية، أما سجاد الحجرة بلجيكي وبكل جدارة، المساند والمتكآت من عجائب الحرفة السورية.

أثناء الجلوس، ذهب المفسر لإحضار القهوة مما أتاح الفرصة للناسي محاولة تذكر الحلم بأكمله، وفي غمرة محاولاته تذكر أمرًا خُفي عليه عندما حادث الرجل ذا الشِعر الواهن على حسب ما ظنه، وإنما بالتحديد بيت خُفي عنه، ولم يتذكره إلا الآن.

في وقت مصادفته للفصيح في أول الرحلة للبحث عن مفسر يفسر رؤياه، أجاب عن الباحث عن إجابات ببيوت شبه شعرية، اتضح في هذا المجلس وبعد عصف ذهني أنها كانت ثلاث أبيات حيث الأخير رجع للحياة بعد فقدانه!

أسترجع المحادثة بينه وبين الشاعر، حيث سأله عن المؤول وشهد له بالعرفان من الجاهل، والإبصار من الأعمى، والسمع من الأصم، حتى أكد على قدرة الأبكم على محادثته، أما اللغز الناقص والبيت المحرّم هو: ومن قاسمهم ضمنوا حلمه الأعتى!

ذكرى دارت رحاها في مجلس عتيق محجوب عن العالم الخارجي. كان اليوم بأكمله منذ الظهيرة حتى الشفق مليئًا بالصعاب والناس العجاب، تجعل المرء يحيد برأيه عن كان ما يخطط لنفسه مسبقًا، وهذا ما فعله؛ اضطر للقعود في المجلس وِقارًا للشيخ حتى يسقيه القهوة ويرتحل لأهله.

طال بقاؤه في الحجرة الفاخرة حتى جاء الفرج أخيرًا، هَمَّ الشيخ بالدخول معه ماعون قهوة وشاي، الشاي كانت إضافة يضيفها صاحب النزل للإشارة على كرم المضيف لضيفه، وقدّم الشيخُ فنجانَ القهوة:

- تفضل، وإبدأ بطرح حلمك، والله الموفق.

لم يفقه في بادئ الأمر مغزى الجملة المحرَّمة، وعلى كل حال فلقد نَسِيَ معظم الكابوس حتى اختفت معالمه واضمحلت ميوله

لتأويل الرؤية، وإنما فاجأه المفســـر بالمبادرة ليعجّل من إقامة زبونه لغرض التفسير، وأيضًا لكسب لقمة عيشه من تأويل الأحلام.

لم يذكر للمؤوِّل قط الحلم على الإطلاق؛ وإنما أتخذ من الهرب طريقًا قويمًا له. إن الكذب عادة ســيئة محرمة، ولكن قد تفلح إذا كانت كذبة بيضاء.

- شيخنا، إن حلمي من أحلام العامة البسيطة.

- أذكره لي.

كما صــــار في بداية دخوله المجلس، ســـقط عنه معظم الحلم حتى لم يتذكر منه سوى كونه حلمًا سيئًا.

- حلمتُ أني أغنى من في قريتي، ونصـبوني إمامًا لطغيان ثروتي على الجموع من الجمهور، وإذا بي أخلف نمرودًا بالحكم وســليمانَ بالجن.

قرر تبسـيط الحلم وتقديم حلمٍ بديلٍ يحلم هو به، لطالما حلم هو بحلم كهذا رغم أنه لم يتوارَ له في أحلامه حلم شـــبيه بما يتمنى ويتوجس.

- نعم، ستكتشف كنزًا في مسقط رأسك، كنزًا يجعلك أنت ومن يخلفك أغنى أغنياء الدنيا. والله أعلم.

- جُزيت خيرًا، أتمنى من الله عز وجل أن يقبل منطقوك، لكن أظنه حلمٌ عابرٌ، مثله مثل أحلام ماتت هي وأصحابها.

- الحلم يموت صـــاحبـه قبـل أوانـه، العمر هو العـدو اللـدود للأحلام؛ لو عشـــنا لمئات الســـنين لتحققت أعتى الأحلام تحقيقاً، ولكن الموت أسـرع من الحلم، على هذا الأسـاس لا تسـتبعد تحققه له، فقد يركض لك الحلم أسرع من الموت!

- لا أعلم، ولكن أنا ممتن على هذه الجلسـة ولا أرغب بالإطالة عليك، كم هي أجرتك؟

- عشر ريالات.

أعطاه عشـــر ريالات عليها صـورة المشـاعر المقدســة التي تمت طباعتها منذ فترة قريبة في عهد جلالة الملك فيصـــل، وكاد أن يرفضها بلا سبب وجيه.

الآن وبعد أن فسـر المفسـر الحلم المعسَّر له، الحلم المختلق الذي لم يحلم بـه في منـامـه، وإنمـا طرح حلمـًا عتيقـًا كـان يبتغيـه من صـغره، حلمًا لطالما أراد تحققه، لهذا سـابق نفســه بقول الحلم غير الموجود وترك أقذر الرؤى تموت ولا يبقى لها آثِر ولا أثر.

الفصل الثاني

أحلام سخية ولكن عتية. حلم نمرود وجن سليمان أوهام تمنى لو أنها حقيقة، رغم تحفظات الحلم في أن أ صحابه كانا من جبابرة الأرض ولا مثيل لهما في تواريخ البشر جمعاء، النبي سليمان سخر له اللّه الجن حِكرًا عليه عندما أخبروه بقدرتهم على سلب عرش بلقيس المرصع بالذهب والزمرد والمكلل بكل الأحجار الكريمة.

أما نمرود طاغية أرض بابل والذي تجبر وطغا في الأرض كمثل فرعونَ، فحلم كهذا صعيب المنال لكون سليمان نبي مرسل وهذا امتياز لن يحصل عليه أحد، أما لو أراد التشبه بنمرود الطاغية الذي أرسل اللّه له ذبابة إلى منخره جعلته يضرب نفسه بالمرزبة أربع مئة عامٍ حتى فنيت عظامه؛ فهل يتمنى الفرد عاقبة كهذه!

بعد خروجه من منزل الفقيه المؤِّول للأحلام، انطلق صوب بلدته التي تبعد أكثر من سبع مائة كيلومتر من العاصمة، في رحلة ستأخذ منه مدة تصل إلى ثماني ساعات، من الغسق حتى الفجر.

مر على أقرب محطة تعبئة للبنزين على طريقه ليملأ خزان الوقود، ومنها يأكل وجبة لكونه لم يأكل منذ جلسة الصباح مع زميله. أوقف السيارة عند مسار التعبئة ونزل يخطو الخُطى إلى مطعم يقدم وجبات الغداء، وطلب نصف دجاجة مشوية تغني صاحبها عن

ضمور البطن مع أرز على الطريقة البخارية وزجاجة صودا بتكلفة إجمالية تصل إلى سبع ريالات.

أنهى طعامه وهَلَمَّ إلى مركبته البهبهاني العتيقة طراز جمس من فخر الصناعة الأمريكية الصلبة، وانطلق بخزان وبطن ممتلئ. في إبان الرحلة بدأ يتذكر الثالوث العجاف، والجملة الأخيرة من القوافي التي انهلّت عليه، وهل حقًا ابتغى حلم الجبابرة، أم أن هناك أمرٌ سقط سهوًا عنه؟

هواجس بدأت تتمخض في أدنى الليل وفي الساعات الأولى من الرحلة ولا جواب أو مجيب لها. من هاته الهواجس ذكرى طرأت على باله وهي نصيحة والده عن الترحال في الليل وما فيه من عيوب قاتلة.

ينظر العرب لليل نظرة مغايرة، أقاويل منها ربانية ومنها شعبية مثلما قيل في الكتاب الشريف، وجعلنا الليل لباسًا والنهار معاشًا، والليل صحوة بواطن الأرض. وعمومًا في مكان ما من الليل ثمة إنسان يغرق.

لا معاش في الليل للناس؛ والدليل هو أن كافة الأعمال والأرزاق وقتها الصبح.

الليل لا يعد أمرًا دالاً على الخير، فكل الخدع والأمور المريبة تحدث وقته، جرائم القتل، السرقة، قطاع الطرق. حتى في قصص الأولين كان الليل وقتَ الحشاشين، فعندما أرسل النبي الصحابي عبدالله بن أنيس لجلب رأس خالد الهذلي كريه المنظرة، أتاه في

نهار في زي ملاك يدّعي الشِعر والمبايعة وحقًا كان شاعرًا من شعّار جهينة، قطع رأسه وسرى به ليلاً وفي النهار ينام لعلمه أن النهار طريق غير محبب عندما تخالف القانون وتقطع الرؤوس، وفضّل الليل لما فيه من قبول لهاته الأفعال، والأهم لا مُبصِرَ يبصر حلكة الغسق.

حقًّا الليل لباسٌ تبيت فيه كل المخلوقات ما عدا الخبيثة منها كالثعالب التي تتغذى على الدواجن، والذئاب الجارحة التي تأكل الأغنام، والعقارب والأفاعي التي تلسعك حتى لا تجد مخرجًا منها غير امتصاص السم بنفسك إذا قدرت، وكافة الآفات اللائي يفضلن الظلمة الدامسة؛ فهو وقت له خبثاؤه الخاصّون وأصحابه المتمرسون.

ما عدا الصباح ذو المعاش الذي تصحى فيه المخلوقات المعتدلة كالطيور تهبُّ لتغذية صغارها، العصافير تزقزق في الصباح حتى تهلل بقدوم الصباح، والديك يصيح للتنبيه بحلول الفجر، والبلبل يغرد ليطرب المستمعين، والحمام يهدل إشارةً إلى أنه يفضل هذا الغصن، والبقر تثغو من الجوع، وبنو البشر إذا استووا؛ خرّوا عن المنكرات والأفعال المشينة كالسرقة والنهب، وقطع الطريق على المسالمين، والتعدي على أعراض الآخرين، فيكون الصباح معيارًا على رجاحة عقول الراشدين منهم، رجل المرور ينظم المرور وقت

الزحام إبان أوقات العمل، والأستاذ كاد أن يكون رسولاً لقيامه في الصباح والنوم يطغو عليه لكي تصل رسالته العلمية إلى طلابه.

أما بالنسبة إلى المسافر، فقد قطع مسافة ساعة من الزمن على طريق الرين المؤدي إلى مسقط رأسه، سارحًا على من حوله، هدفه هو وصوله إلى محيطِ منزل العائلة، وفي لحظات غامرة بالسرحان وشبه نسيان للواقع، أظهرت أنوار السيارة رجلاً يشير في جانب الطريق بيديه إلى المركبة حتى تتوقف من أجله.

إن زمن السبعينات في المملكة كان العصر الذهبي لقطّاع الطرق، وكانت سمعة أهل البادية - في قطعِ طرق القوافل والحجّاج ونهب ما لديهم – تذاع في الأرجاء، ولكن رغم السوابق والمحاذير التي لم يعر لهما اهتمامًا، أصر على التوقف لعابر السبيل حتى يعرف وجهته ويقرر حينها أخذه أم لا، وعندما أنزل الزجاج يدويًا رأى رجلاً ملتحٍ، يصعب تحديد عمره في ظلمة الليل الطامسة.

على كل حال بدأ في رمي الأسئلة عليه:

- إلى أين الوجهة؟ إن كانت على مساري الذاهب للخرمة فهَلُمَّ بالركوب أما لو كانت منطقةً أبعد من مساري أو تخالفه بالتحريف، اعذرني على رفضي لو أبيت.

- أنا في ذاك المكان، عند الجبال، أعلى التلال، أدنى السهول.

لقد غناها وكأنه يلقي شعرًا جزلاً، لا حيّز لشخصٍ يلتزم بالشعر في أجوبته من الناس من أول وهلة من المقابلة أو المحادثة إلا لو ما كان شخصًا مميزًا عن البقية، حتى ملابسه الذي سيكشف عنها ضوء الشمس الفاضح، ستشهد عليه بالعتاقة، هذا مع احتمالية توطن الرجل في أقصى البادية بعيدًا عن جماهير الناس وأعينهم، وربما لهاته الأسباب أصبحت مهاراته التواصلية شاذة عن البقية.

- لا أعلم مقصدك! على طريقي العديد من الجبال وجموع من السهول، هذا ونحن في الليل من المستحيل أن تستبين الجبال إلا بعد الغسق في مطلع النور وقت الفجر.

- دعني أركب معك وعندما أراه سأشير له.

- أتقصد بعد مطلع الفجر ستشير لي عليه؟

لم يجب عليه في هذا الشأن، ولا مجال للتراجع الآن، ركب غريب المنظرة حاسبًا أن قائد المركبة وافق على ركوبه المركبة! مع ذلك لم يبالِ بهذه الفظاظة محسنًا الظن فيه، والعلة أنه لا يعرف

من وجهته شـــيئًا ســـوى الجبال المطموســـة ليلاً، وكم من الوقت ســـيأخذ حتى يشـــير، وهل ســـتظهر منطقته في الليل أو في مطلع الفجر، مع افتراض ظهور أرضه في أوج الليل، أسيشير على سهله في وقتها!

مع ركوبه، أخذ شـــداده الممزق الذي يكاد يتفتت من عتقه وقدمه حيث يحمل فيه أغراضـــه من ملابسَ وربما طعام أو حتى سلاح لا أحد يعلم ما به، ثم وضعه على حوضه.

لم يهمز بكلمة أو حتى يلوح بعينيه يمنة ويسرة وإنما كان ثابتًا كجبل أحد، التزم بحاله حتى بادر بمحادثته رغبةً في معرفته لا أكثر، واستهل عليه:

- ما اطلعتنا عليك.

- حوقان.

- ومن أية العرب أنت؟ أمن الرشايدة أنت؟

- أنا من قبيلة يام، حوقان اليامي.

ربمـا الانطبـاع الأول عن كونـه فقيرًا؛ دلّـل على قربـه من الرشـــايدة، التي تعد من أكثر القبائل الفقيرة في الجزيرة العربية مقارنة مع من غيرها، لكون بعضهم لا يملكون الجنسية الرسمية، وعلى هـذا لا يحصـــلون على حقوق المواطنـة المكتوبـة، وربمـا اســـتيطانهم في الريف بدل المدن التي تعج بالحركة والحياة من أسباب فقرهم وقحطهم.

- وأين هي دياركم؟

- معقلنا هو نجران والكل عارف بذلك، ومن يجهلنا نعلمه.

كان رده الأخير من الوقاحة ولكن متوقع بتأثير من الشهامة، ولعل مكانة قبيلة يامٍ تتساوى مع القبائل الأخرى، هذا أيضًا أن هذه القبيلة لها أقليمها الخاص في جنوب السعودية، على هذا الأصل كان من الأحسن ألا يطرح سؤالٌ مبطنٌ بالنمطية، في حضور رجل لكيع كهذا.

الواقع يقول أن طارح السؤال يجب عليه تدارك الخطأ الجسيم والاعتذار أو مدح القبيلة كاعتذار غير مباشر، ولكن خالف الأصل وتجرأ حتى طرح سؤالاً حرجًا:

- يتحدث القليل من العامة من الناس عن قبيلة يام فيما يخص المذاهب الدينية وأنا من هذه القلة وربما السبب في هذا أن المؤسس للدولة السعودية الثالثة الملك عبد العزيز عقد اتفاقًا مع قبيلة يام بألا تتدخل الدولة في مذهب القبيلة، وعلى هذا فإنهم استطاعوا التكيف مع القبائل الأخرى، والأخيرة تكيفت معهم.

- وماذا سمعت عنّا؟

- قيل عنكم أنكم تسيرون وفقًا للمذهب الإسماعيلي، وقيل العكس في أنكم تخطون خطاكم على المذهب السني، فما الصحيح من القولين؟

- كلا القولين صحيح، جميعنا رجلاً ونساءً من سنيين وإسماعيليين نعبد الله وحده ولا نشرك بغيره.

- لكن، أتوقن أفعال الإسماعيليين من يام؟ فهم يتبعون المذهب الشيعي الذي ينادي بكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين، ويرفضون أكثر الحجج السنية، مثل الصيام والصلاة والحج كم ذكرت الأحاديث الشريفة. ويحتجون بأن صلاة السنيين تشبه أصنام العرب في الجاهلية مثل العزى والات والمناة والطاغوت وغيرهم.

- الشيعة اثنا عشر فرقة، ومما ذكرت، فهؤلاء من أصحاب نزعة التطرف.

- أي طائفة من المسلمين تخالف السنة وتقذف صحابة النبي؟

- النوع المتطرف، أما ما يخص مسائل العبادات، فلديهم حجج في أن أكثرها لم تذكر في القرآن أو في الكتب المنهجة الدقيقة، ويحتجون بالبخاري وهو بشر قد ينسى ويغفو، والأهم أنه قد يأخذ أحاديث من أناس ليسوا بمثل كفاءته العقلية، فالناس قد تحرف وتحور أحاديث وتعطيها له.

ويستكمل كلامه:

- ماذا عن قاذفي الصحابة والخلفاء الراشدين، من يتهم عمر باللوطية وعائشة بالزنا مع تبرئتهما في القرآن وتبشيرهما بالجنة؟

كانت جراءةً حادةً أن يذكر شخصًا مواضيع حساسة كهاته، وربما أثارت غضبه كونه يرفض التعصب المذهبي، وقد اتضح انزعاجه عندما رد، بنبرة حادة غير معتادة:

- جهلة الشيعة كما قلت.

فهم مقصده وتوقف عن هذه السجالات واستمر في القيادة في صمت استمر حتى الفجر. أتى موعد الفجر ولم يهمز بمنطقته السهلية التي صوّرها في وصفه، قطعا مسافة ثلاث ساعات وتعدوا جبال القويعية والنخيلان اللتين ربما يكونان محجره، مع ذلك ربما يطمر على الخاصرة ذات الجبال الكثيفة وهو لا يزال جاهلاً

مكانه، أو في أسوأ الأحوال أن يكون مبيته أبعد من دياره، وهو في نهاية النطاف ملزم بإيصاله.

أتى موعد آذان الفجر وشاهدا محطةً على جانب الطريق، فيها مطعم ودكان وخدمة تعبئة البنزين والأهم هو المسجد، استهل في اقتراح الصلاة أولاً ثم الإفطار لاحقاً:

- نصلي ثم نخفي ضمور بطوننا بالإفطار، وقبل ذلك فالإفطار على جعبتي.

- الصلاة أمرها هين ومكتوبة علينا، أما الإفطار فأنا لا أفطر وإنما أتغدى وأتعشى، وعموماً كرمتَ على حسن الضيافة.

كان رده غير متوقعاً فلا يوجد أحد يرفض الطعام وخاصةً رجل نحيلُ الجسـد ، عظام وجهه تكاد تبين خلفاً على نسـبة الدهون الضـئيلة في جسـده، مع ذلك رفضُ المكرمة يعد عيباً عند القبائل ونقصان على المضيف إذا رفض أحد زاده:

- لن اسمح لك بالمضـيء بدون طعام، ومكاننا يبعد ثلاث ساعات، هذا وربما أنك تبعد أكثر من ذلك، وعليّ دينٌ بألا تذهب أنت إلا وقد أكرمتك، وبدونك لن آكل ولا صـاعًا من الزاد ، فهَلُمَّ معي على المسجد وبعدها على الفوّال.

- هذا من كرمك، وأعانني الله على رد الجميل.

دخلا المسـجد وقعدا في الصـف الأول، وإذا بأحد العمالة يقيم الإقامة ويختمها... لا إله إلا الله، عند الانتهاء نظر لرفيقه الواهن بنظرة تقليدية يُقصـدَ من هذه النظرة عمومًا في كافة الأحوال أن يكون المنظور إليه في هذا المشـهد إمامًا على المصـلين - وهذا ما حدث فعلاً - يصـلي بهم ركعتي الفجر، كبّر واسـتهل الترتيل في سورة الأنعام كاملة في الركعة الأولى أما الثانية كانت سورة الجن - إذ يتعجب المرء كيف لرجل بسيط وبدائي المظهر وقليل العلم، أن يحفظ سـورًا كاملة ويلقيها – كانت قراءته ترتيلةً بشـدة وبسـببها أطيلت الصـلاة فوق العادة، وإطالة الصـلاة ليست فعلاً مكروهًا إلا عندما تكون في ردحٍ ومكانٍ أصـحابهُ عجلون في أمرٍ لا صـبر عليه

بمثيل من لديه عمل وسفر وكلٌّ بظرفه، فالدين يسرٌ وليس عسرًا على الجماعة.

رتّل الإمام سورة الجن كاملة وعندما كان في بداية الآيتين من سورة الجن:

فقال في الآية الأولى: قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أستمع نَفَر مِّنَ الجن فقالوا إِنَّا سمعنا قرآنًا عجبًا - وخرج القارئ عن سورة الجن ثم قال إنّا حقًا سمعنا العجب!

رجع إلى سورة الجن بعد أن سها عن الترتيل حتى وصل إلى الآية الثانية الناصة على: يهدي إِلَى الرشد فآمنا به وَلَن نشرك بربنا أحدًا — ثم يؤكد الإمام خروجه عن الآية بقوله، إنه الله لا إله إلا هو!

من اللامكان يخرج رجلٌ مجهول الهوية بصوت كهل يقاطع المشهد بتفسير ما حدث، حيث يطرح تعليلاً بسيطًا لمن جهل الواقعة. يروي هذا المسن حكاية قصيرة عن سورة الجن التي نزلت على من عُنوِن اسمهم في السورة ذاتها، حاولت الشياطين في زمن النبوءة تجسير السمع بين أسرار السماء وبينهم؛ فأرسل لهم المولى شهابًا حال دون استراق السمع منهم، حتى رجعوا مدبرين إلى أقوامهم وتعجبوا من الفاعل، بعدها أُمِروا بالانصراف في مشارق ومغارب الأرض بحثًا عن السبب، حتى وصلوا إلى سوق عكاظ وإذا بهم يجدون النبي يصلي الفجر بالمسلمين، وتعجبوا من القرآن؛ فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبًا، وآمنا به.

أنهى الصلاة وقام يصلي ركعتي التسنن، وعيون المصلين عليه أينما يذهب من قيامه وجلوسه حتى خروجه من المسجد؛ لإنهم لم يعرفوا شخصًا خرج من ترتيل الآيات ونطق بغير كلام الله إلا هذا الرجل، فالبعض ظنوا أنه تأثر من الآيات وسقط سهوًا حتى أنجرف في طريقٍ أعرجَ أغاضهُ عن الترتيل الصحيح - مع أنه أخطأ مرتين - والبعض حسبوا أنه ليس من متبعي مذهب السنة، وآخرون شكّوا في ظهور بدعة جديدة في جزيرة العرب.

كان من يقلّه من الفئة الأولى الظانين بتأثر الإمام، فسأله بعد خروجهما من المسجد:

- أتضحت عليك علامات الحزن في كلماتك، بعضٌ يعبر بحزنه بثلاث طرقٍ، الأول بيديه وهذا أ ضعفهم لقلة الحجة، والثاني بلسانه وهو أشجعهم لفصاحته، والثالث بقلبه وهو أخطرهم؛ فهو من يحمل الضغينة لك أجيالاً خلف أجيالٍ كمثل العداوة التي شُحِنت على قرابة ٢٦ عامًا من بني كنعان على يهود إسرائيل الغزاة والمحتلين عندما أسسوا دولتهم الواهية. الناس تموت أما الأفكار تبقى. وعلى هذا فأنا كنت أفضل لو أخفيت تأثرك؛ حتى لا تدخل في دوامة التشكيك التي تهوي بك إلى التكفير من العامة وتجد أشخاصًا يلتمسون لك العذر مثلي وأخرين يلتمسون لك الشر.

- لم أقدر على ذلك، هذا أمر جُبِلنا عليه من عصور.

انتهى النقـاش هنـا ، وتوجههـا إلى المطعم على وعيـدِ التفطير، لكن أصـر هو الأخير على طلب بسـيط وهو أن يفطر لوحده بعيدًا عن الأنظار:

- بما أنك تكلفت على نفسـك وجبة الإفطار، وجبرتني عليها وأنـا لسـت من محببيهـا ، على أقلِ المطـالب؛ اسمح لي بـالإفطـار بمفردي، ولا أقصد الفظاظة من البعد عنك؛ وإنما لي أسبابي.

- لا أقـدر على ردك عن طلبـك، لكن عـدني بـأنـك سـتنهي إفطارك.

- سأنهيه ولو بعد حينٍ، أغدقتَ عليّ بكرمك وأعانني اللّه على رده لك.

كان هذا الحديث سابقًا لطلب الطعام، بعدها طلبا صاعين من الفول وقطعتين من الخبز المقمّر، اخذ صـاعَ الخبزِ وصـحنَ الفولِ الخاصتان به وخرج من المطعم حتى شك الآخر أن هذه ستكون آخر لحظة بينهما.

قبل أن يستلم هو طلبه قرر جسّ النظر عليه حتى يتأكد من نيته في أكل الطعام وفعلاً حدث المتوقع عندما رمى الطعام على الأرض ليأكله رهطُ كلابٍ أمامه، ولم يكتفِ بذلك، حيث أقدم على نهب عظام كانت تعضها الكلاب ووضعها في شداده.

وكان من العجيب أن شاهد معه فردًا آخر على شبيهته وهيئته، رجل قديم الملبس وكثيف اللحية، وتظهر عليه علامات الهوان، يجادله وكأنه يعاتبه على سرقة عظام الكلاب.

شح بنظره من موقع الواقعة مصدومًا من هذا السلوك الغريب ورجع المطعم مرة أخرى حتى يتسلم طعامه ولم يطل في إنهائه، فغسل يديه وخرج من المطعم أخيرًا.

تفاجأ أمام عينيه بوجود من راقبهما مسبقًا؛ تصنع عدم معرفته بالواقعة الشاذة بأنه لم يأكل طعامه إضافةً على نهبه عظامًا لا غرض منها كانت تعضها الكلاب الجائرة وربما المسعورة!

امسك بيده من كان يعاتب رفيقه فيما مضى، ونصحه بأن يأخذ حذره ممن يصاحب، فقرن الشيطان يغطي المنقطة في نهاية المطاف. وعندما ولى ظهره، سقطت منه قلادة مرصعة بالمرجان، حاول اللحاق به داخل المسجد، وعندما دخل عليه، لم يجد سوى ملابسه العفنة المتراكمة فوق بعضها.

رميُ الطعام كانت خسارة مالية لا أكثر على صاحب المكرمة وكرمًا لا يقدره الضيف المكرَّم، لكن سرقة العظام النتنة أمر أكثرُ جنونًا فلا أسباب تفسر أفعالاً كهذه على الأطلاق!

مرّا سوية موقع الطعام المهدور ووجداه أُكِلَ من الحيوانات المشردة، على الأقل أجرٌ هُدِرَ على الحيوانات. كان على السوي بينهما قطع الشك باليقين بما سيفعل الآخر بهذه العظام، طلب من حامل العظام عندما رجعا إلا المركبة أن يحضر هو الأخير إناء الماء بسعة ١٦ لترًا للطريق حتى يغنيهم عن مشقة البحث عن الماء وينجيهم من العطش.

كانت الخطة موفقة عندما وافق هو على جلبه، ولكنه تغافل ونسى شداده في المرتبة الجانبية وهلع نفسه إلى الدكان ليحضر ما طُلِبَ منه.

الآن أُتِيحَت الفرصة للتنقيب عن أغراضه ومعرفة الخبايا، فتح الشداد ووجد العظام متناثرة، بعضها قديم حيث أُكِلَت أجزاؤه وما زالت عليه أثار الأنياب العاتية التي ربما تكون من فعل حيوان، أما عظام اليوم فكانت حديثة، إنه حقًا منظر مريب!

تعمق في التفتيش والزمن يحاربه، حتى وجد دفترًا، فتحه ثم كشف عن كتابات بلغة ليست عربية، ورسومات من أساطير الأولين عليها مخلوقات بشعة، قلب الصفحات فوقع على خريطة تدل إلى شيء اصطلح على تسميته بمنطقة الدويحي التاريخية حيث

كتب بالعربية فلم يقدر على استيعاب مضمون الخريطة، غير أنها تدل على أمر لا يفقهه، أخيرًا تيقن أن الرجل الذي معه ساحرٌ وقد يضره، حيث العظام الشبهُ المأكولة من غير البشر محملةٌ في شداده، ودفتر عليه كتابات وكأنها طلاسم خبيثة، وخريطة مجهولة.

الآن على ناصية الطريق مرت دزينتان من الدقائق منذ هروبه من المحطة على طريق مكة، حيث إنّ مفرقَ الخرمة اقترب منه؛ وهذا سيغير اتجاه الطريق، وسيجلب الراحة للراكب لعلمه أنه قطع شوطًا طويلاً عن المحطة، إنما المشكلة التي لم تطرأْ على باله أنه قال لجلاده المحتمل، موقع منزل عائلته، لكنه لم يُعر في تلك اللحظة حين وقت الهروب للمشكلة أية خاتمة.

الفصل الثالث

الآن على مفرق الطريق الذي سيهوي به إلى مسقط رأسه حيث تقبع عائلته هناك، وإنما الآن قد بَعُد عن صاحب الشداد مسافةً معقولةً، وحان الوقت للبحث عن إناء ماء بديل عما سبقه بعدما فضّل سلامته، وهذا هو الأصل في كافة الأمور.

بعد ردحٍ من الزمن، لمح محطة على ناصية الطريق، فتوقف حيث تتوفر فيها التموينات المستمرة، دخل الدكان حتى يحصل على مبتغاه وقرر أخذ الإناء الذي تخلى عنها مسبقًا لينجو من محنته، ورجع إلى سيارته، وعندما ركب إذا برجل يطرق عليه زجاج النافذة من جهة قائد المركبة:

- السلام عليكم، أنا عابر سبيل تقطعت علي سبر السفر ولم أجد من ينجيني.

عابر سبيل آخر ولكن بشكل راقٍ لا يجلب الريبة، شماغٌ من طراز دم الغزال، ثوبٌ الطهارةُ فيه تطغى على العتاقة والنجاسة، والأهم هو كلامٌ رزين يبعد الشبهة عنه، حيث يقنع المصغي له بأنه رجلٌ محترم لا يؤذي حتى البعوضة.

- أين هي وجهتك؟

- الخرمة.

أبعد الشداد وأزاح عنه إناء الماء ووضعها في الوسط بينهما، وعندما ركب الراكب أشتد ناظراه على الشداد وكأنه يعرف أمرًا يخفى على الكل، ولم يقاوم الضيف نفسه حتى سأل عنه:

- إن هذا شداد قديمٌ نديم، وأنت رجل رزينٌ قويم، كيف وصلت إلى هذه الحالة التعيسة؟ أظنك قابلت الأشخاصَ الخطأَ في حياتك، كل ما أخبروك به ربما يكون مخالفًا لمنطق الحياة.

رجل فضوليٌّ ووغد كما ظنّه، كانت تدخلاتٍ عمياء منه في أمور لا تخصه، ولقد كانت شخصيته مناقضة لقرينه عابر السبيل الماضي الذي لم يسأل المصغي له حتى عن مذهبه، وعلى هذا رد عليه بنبرة حادة:

- ليس من شأنك، أخذتك معي رفقًا بك، ولكن هذا لا يعطيك الحق أبدًا للتدخل بتفاصيل الأمور، فهل رأيتني أسأل عن سبب مجيئك لهذه المحطة؟ وعن اسمك؟ أو عن حداثة لبسك؟ والأهم عن وجود رجل في مظهر متألق بدون سيارة تهوي به إلى أين يبتغي؟ يا رجل إن تواجدك في هذا الزمان والمكان على مظهر متكامل في محطة متهالكة يثير الريبة، ولكن التمس لأخيك المسلم سبعين عذرًا.

- اسمي مَرجان اليامي، ولكن إن لم أكن مسلمًا – مع نبرةٍ ضاحكة خبيثة – هل ستلتمس لي عذرًا؟

لقد كان سينفجر عليه غاضبًا بسبب سوء سجيته ولكن في رمشة عينٍ، صدما دابة من الإبل الجائرة، وكل شيء أنطفأ كليًا في عينيّ الراكبين، ولحسن حظه لم يكن انطفاءً يرفع بصاحبه إلى الفردوس الأعلى أو يهوي به إلى جهنم في نهر اللعنة المميت.

صحا صحوة مؤقتة فوجد الناقة - في وسط الجيب الرفيع - ترفس آخر أنفاسها، إنما واحد منهما لم تنطفأ عينيه بل كان في صحة وعلى ما يرام، حيث ينتزع العظام منها ويأكلها من بطن الدابة الحية المسكينة، في مشهد لا يحصل إلا في غابة حيث الأسود مفترسون والغزلان فرائس! إنما ما وجده كان كفيلاً بأن يسبب له نوبةَ هلعٍ تفقده عن الوعي نهائيًا.

صحا في مستشفى عتيق متهالك في قُريَّةِ الحفيرة وهي منطقةٌ أصغرُ من القَرْية، قريبة من الخرمة التي لا تبعد إلا ساعة ونصف من الحفيرة، وجد نفسه في سرير في غرفة ضخمة كل سرائرها خالية، حيث الشاش يغطي بعض أعضائه، واللصقات الطبية محطوطة على ندب في وجهه في أماكن تمت خياطتها، لقد كان لوحده حيث الشداد لم تكن معه ولا صاحبه الذي التقاه في المحطة فأخذه معه نخوةً، كان في حالةِ شبهِ فقدانٍ للذاكرة، حتى ظن أن الراكب الذي كان معه ربما يكون قد توفاه اللّٰه.

ارتاب من الوضع الحالي حتى حاول النهوض للبحث عن الشداد ورفيقه سيء الخلق، وعما حدث ما بعد الحادثة، لكن لم يستطع

النهوض من آثار الحادث المميت الذي لم يُمِت صاحبه، فمن حسن حظه أن الإصابة لم تُصِبْهُ بآفةٍ مميتة تشله عن الحركة أو في أسوأ الأحوال تقتله. إنها معجزة أن ينجو الإنسان بمثيل حادث كهذا!

في فترة توجسه وتذكره لذكرى الحادث المريب، لم يقدر على تذكر أي أمر سوى آخر لحظة من الحادث عندما وقعت الواقعة وكان غاضبًا من الراكب المعتوه، وفي أثناء التذكر دخل عليه الطبيب مع الممرضة ليطمئن على مريضه في نوبة عمله:

- السلام عليكم، كيف تشعر الآن؟

- لا أعلم ما أخبرك به، ولكن هل إصاباتي خطيرة؟

- لم تظهر التحليلات والأشعة السينية أية أضرارٍ مستديمة، كل ما تعاني منه هو شعرة في معصمي اليدين ورضوضٌ موزعة على كافة الجسم، سنصرف لك مورفين لتخفيف الآلام وتخرج حسب حالتك عندما نقرر ذلك.

- أنا ممتن لك يا...يا...

- الدكتور مصطفى الكرامة.

- دكتور مصطفى، عندما وقعت الواقعة، كان معي شخص حَملْتُه معي من محطةِ تعبئة البنزين، اسمه... لا أتذكر أسمه الأول لقد كان من قبيلةِ يامٍ، رجلٌ حُسن المنظر...

- يا أخ جمعان، تقريرُ الحادثِ لم يذكر وجودَ أحدٍ معك، ربما هذه من آثار الحادثة، فقدانٌ جزئيٌ للذاكرة واضطرابُ ما بعد الصدمة.

- لا أعلم ما حدث، حتى أنه كان معي شدادٌ فيه أغراضٌ خاصة.

- حسب تقرير الحادث، صدمتَ جملاً ومن حسن حظك كان حُوارًا وسيارتك رفيعة سمحت لك بالنجاة، وبُعْدُ الضرر عن أجزائك الحساسة. على أية حال ما ذكرت آنفًا يزيد من تيقني في أفضلية بقائك حتى غداً لنتأكد من أعراض فقدان الذاكرة الجزئي.

- ماذا عن أغراضي؟

- تقصد شنطةَ الملابس؟ أنها في الخزانة على اليمين، لا شيء آخر. استرح قليلاً.

كانت نجاته أعجوبةً من عجائب الدنيا ولكن مقدرة لصغر حجم الجمل وارتفاع قامة المركبة الحمراء المدججة بالحديدِ الصلبِ القاسي، وعلى هذا استطاع النجاة من بعد الله. إن ما يشوشه هو اختفاء الراكب من الحادثة وعدم ذكر التقرير له، وفي باطنه يكرر:

هل حقًا هرب من الموقع؟ لا أتذكر شيئًا! ربما كانت شخصيته تخيلاً أصابني من آثار الحادثة، هل كنت لوحدي، وأين هي شدادُ

الساحر؟ أفضل حل هو الذهاب لموقع الحادث للتأكد ، ربما أتذكر شيئًا ، أو علي النظر للسيارة أولاً ، ربما أنشّط ذاكرتي.

في إبانِ وجودِ إمكانيةٍ للخروج الليلة؛ سأل الممرضة المشرفة على القسم الخالي تمامًا:

- عفوًا، ماذا عن الإمكانية الخروج الليلة؟

- يجب عليّ استشارة الطبيب، وتوقيع أوراق الخروج منه، دعني أسأله.

- هل أقدر على الذهاب بدون كافة هذه الإجراءات المطوّلة؟

- أنك تتفهم القانون وإجراءاته بحكم وظيفتك، حيث تقدسه وتطبقه حقَ تطبيق، ما الداعي لي أن أفك القيود عنك دون تصريحٍ؟

- وما هو القانون الذي يمنع خروج المريض بمسؤوليته؟

- قانونُ المرضى الجديد، فحسب تحليلَ الطبيب، فأنت تعاني من اضطرابِ ما بعد الصدمة ونسيان عابر للذاكرة، على هذا الأصل نرجو بقاءك حتى نطمئن على صحتك.

إن الحل في معضلة نسيان الذكريات هو عيشُها من جديد وكأنها لم تحدث مسبقًا؛ لربما ترجع الذكريات الميتة. كانت هذه من أفكاره التي فكّرَ فيها فقدّر، ثم فكّرَ حتى أعقلَ، الليلة يمسي في المشفى فقط من أجل نصيحة الطبيب وتجنبًا لمخالفة القانون الذي استجد حيث يُمنع المريض من الخروج بدون إذن الأطباء، الليلة رقود والصباح رباح.

بعد ردحٍ من الزمن، صحا الصبح وشعر بأنه قادر على المشي والحركة، توجهه إلى الخزانة لعل الطبيب سها عن ذكر الشداد،

ولكنه كان صــادقًا فيما نطق، الأهم أنه اســتبدل لبس المرضــى الذي يزيد من ثقل المرض على المريض.

دخل الطبيب ونظر إلى حالة مريضه، فطلب منه أن يستلقي على الســرير وســتجلب الممرضــة له كرســيًا متحركًا، رفض جازمًا ســلامته، ولكن إصــرار الطبيب على أنها إجراءاتٌ متبعةٌ بموجب القانون؛ أجبره على القعود في الكرسي المتحرك.

كان سـبب سـحل الدكتور له هو إجراء فحص لنسيان الذاكرة، دخل المكتب وتحدث معه:

- أخ جمعان، سـنجري لك تحليلاً للدم والبول للتأكد من عدم وجود عقاقير قد استخدمتها و...

- لم أتجرع أي شيء يا دكتور مصطفى.

- أعلم ذلك، لكن دعني أنهي كلامي. بالنسـبة لتحليل الدم والبول فهما إجراءان مطلوبان في كل المستشفيات، أما الجديد في عالم الطب هو أشعة الرنين المغناطيسي، التي سنفحص بها منطقة الدماغ، مع العلم أنها تقنية حديثة النشأة في هذه السنة.

- أجريتم لي أشعةً مسبقًا، ما الداعي لهذه الأشعة؟ وأنا لا أعاني من مشـكلة عقلية، فما زلت أتذكر ذكريات الأمس وما قبلها حتى الطفولة!

- إن أشعة الرنين المغناطيسي مغايرة تمامًا عن الأشعة السينية، الأولى مهمتها إظهارُ نقاطِ التخثر والبقع السـوداء في المناطقَ الحساسـة التي منها نستطيع تحديد أماكنَ التجلط أو صعوبةَ وصول حركةِ الدماء في العضو، أما الثانية مهمتها إظهارُ العظام ومناطق الكسور والشعرات. إذا لم تكن لديك أسئلةً إضافية، عليك البدءُ الآن بالذهاب مع الممرضة لتأخذ منك عينة الدم ثم تليها بالبول فأشعة الرنين المغناطيسي.

- على خير، لكن ما زلت أجزم أن كل وقائعي كانت حقيقةً وليست وهمًا.

- هناك مقولة عالمية يقال فيها أن المريض لا يعي نفسه حتى لو أشرت إليه.

إن تحليلات الدم والبول تأخذ ثلاثة أيامٍ جلالٍ، وعلى هذا صرفوا موعدًا له بعد ثلاثة أيام، أما تحليل أشعة الرنين المغناطيسي لا تربو عن ساعة من الزمن، لذا أنتظر في الردهة حتى يحصل على استشارةِ الطبيب حول أشعته، وبعد ساعة نادت عليه الممرضة، وهذه المرة كان معه مراجعون ينتظرون دورهم، وكأنهم يسترقون السمع منه:

- جمعان السبيعي، جمعان...

- نعم هنا.

دخل على الطبيب المشرف على حالته وكان معه طبيبٌ آخر - يحوم بالنظر بين الأشعة وصاحبها، لاحقًا سيعرّف نفسه بأنه مختص في علم النفس – وسلم عليهما ثم رد الطبيب المشرف:

- وعليكم السلام، اجلس وانتبه معي في التفاصيل، أظهرت أشعة الرنين المغناطيسي نقطةً سوداءَ في منطقة الحصين في الدماغ، وهي المنطقة المسئولة عن الذاكرة وعملها.

- وماذا تعني النقطة السوداء؟

- إن هذا دليلٌ على وجودِ صعوبةٍ في حركةِ الدماء حول منطقة الذاكرة مما يُعَدُ برهانًا على فقدان الذاكرة العابر. سنصرف لك مسيّلَ دماءٍ وحبوبًا فيها مصادر السيروتونين الذي سيساعدك على استعادة نشاط الذاكرة. ونرجو أن تستأنس لنا بأن يقوم الأخصائي النفسي بإجراءِ فحصٍ للذاكرة وَفَقَ قواعد علم النفس. ولكن قبلها عليّ تحذيرك، إذا حدث وتذكرت ذكريات معينة، فأعلم أنها أوهام تصنعها النقاط السوداء وليس وقائع تتمسك بها.

أجرى المختص فحصًا من خلال منهج وكسلر الذي يختبر الشخص أحد عشر اختبارًا منها تسلسل الأرقام والمدى المكاني والتوجيه والصور العائلية، وفشل فيها كلها.

كانت هذه الطامة الكبرة بالنسبة له، هل كان كل ما عاشه نقاط سوداء؟ أم حقيقةً فعلية حدثت؟

إن الحل الوحيد هو الترجل عن الوضع الذي يُرثى له، بالقيام بتحقيق خاصٍ. قام من الكرسي المتهالك ولكنهم أجبروه على القعود بقوة القانون الجديد، وعندما ذهب لغرفته حتى يجلب أغراضه ويقرر الانصراف، وجد رجال أمنٍ يصفون أنفسهم بأمن المرضى يأمرونه بعدم الخروج من غرفته إلا بإذن الطبيب.

الفصل الرابع

مرت ثلاث أيام على حجره في غرفته، ولم تستمر يومًا آخر حتى دخلت عليه الممرضة وأعين الحرس تحرسها، أخبرته بأنها تملك طلبًا مسبّبًا من الطبيب لإحضاره حتى يفحصه، قاموا بإخضاعه حتى يقعد على الكرسي رغم سلامته وجروه إلى الطبيب حتى أدخلوه عليه، سقط سهوًا عنهم أن من يحرسونه سبق وأن خاض دورات تدريبية جهزته لمواقف كهاته.

ادعى أن بطنه يؤلمه حتى يفحصه الطبيب، ولما وضعه على السرير خنقه بيدٍ واليد الأخرى على فاهَهِ، حتى تأكد من فقدانه للوعي، وبعدها استهل في خطته حيث كان يفكر في كل الاحتمالات على مدار الثلاث الأيام الماضية وكان هذا الاحتمال هو الأقرب للتطبيق.

بدل ملابسه بملابس الطبيب ثم وضع الطبيب في السرير وغطاه، صرخ بحِلة الطبيب مدعيًّا حاجته للمساعدة من أمن المرضى في شأن المريض، وعندما دخلوا، اندس خلف الباب حتى تأكد أن جميعهم وقعوا في الكمين، عندها خرج من الغرفة وأقفل عليهم داخل العيادة.

سار في المستشفى ولم يكن احدٌ يشك في هويته حتى انصرف بدوت تريث إلى الخارج، ولما علم بطلوعه سالمًا، وقتها أمن العقاب من قانون المرضى.

لم يطل البقاء أمام واجهته حتى سعت إليه المركبات الكدودة خارج باب الرئيسي حيث تقِّل فيها الشخص إلى مبتغاه، سقطت عينه على رجل كدود ودبَّ إليه:

- السلام عليكم، تُوصِّلُنِي إلى بلدة الخرمة؟

- وعليكم السلام، نعم المنطقة لا تبعد إلا ساعة من هنا.

لم يسأله عن سعر الأجرة لعدم اكتراثه بالمبلغ وإنما غايته الوصول لأهله، وكان يفكر كيف سيفسر الرضوض ولبس الطبيب لأهله. وفي المقابل لم ينهل عليه السائق بالأسئلة عن سبب الكدمات على وجهه. وفي الطريق لم يكن يفكر سوى بالحادثة السابقة، أكانت حادثة حقيقية أم مجردة من الصواب؟

وفي ثلث الأول من ساعة الطريق، التفت عليه وسأله:

- أين هو أقرب مركز مرور لكم؟

- مركز الحفيرة لكننا قفزنا عنه.

- لا مشكلة، ارجع له وسأزيدك.

لن يرفض الزيادة هذه على الإطلاق واثقًا أنها ستعطى له من الطبيب الذي ربما يستلم أجرة عالية. كان الغرض من الرجوع

للمركز هو البحث عن سـيارته التي لم يَعُد يُعِيرُ لها اهتمامًا بذاتها وإنما حتى يعرف ما جرى له وقت وقوع الواقعة، أخذا طريق ذهابهما إيابًا لعلهما يجدان المركبة، وفي الثلث الثاني من السـاعة الأولى، وعلى الطريق وصلا إلى المركز، وطلب السائق:

- انتظرني هنا، فلن أطيل البقاء، مجرد أوراقٍ سـأوقعها على سيارة أجزم أنها ذهب تشليحًا بسبب حادث ليس بضحل.

- هذا إذًا سبب جراحك، سأنتظرك حتى ترجع ولو بعد حين.

نزل وهو يعرج عرجًا خفيفًا، وكان يجب عليه انتشال أغراضه عندما كان في المشفى لو أن أمن المرضى لم يكن لهم وجود، من هاته الأغراض كانت الأوراق الرسمية من التابعية الشخصية مهمةً حتى يتعرفوا على صاحبِ السيارة المسجلة باسمه.

دخل قسمَ المرور وأوقفه المجند وطلب:

- تابعيتك.

- لا أملكها الآن، فأنا وكيل رقيب في سلك الحرس الملكي ولدي سيارة في حوزتكم؛ لعلمي أن تقارير الحوادث تصدرها أجهزة المرور.

- نعم، وصلتنا قبل أربع أيام مركبة جيب أمريكي طراز السبعينات، وإنما هناك مشكلتين ما زلنا نسعى لحلها وعلى هذا يجب عليك الانتظار لو رغبت في أخذ السيارة لمستودع الخردة؛ لأنها ذهبت تالفًا.

- لـدي علم مســبق أنهت تلفت من الحـادث، ولكن مـا هي المشكلة الأخرى؟

- من الجدير أن تدعنا ننهيها بأنفسـنـا، والسـيارة في ســاحة الحجز، راجعنا غدًا، حتى ننهي جميع التعليمات.

أسـتغرب من هذه المبهمات المحيرة، فكيف تكون السـيارة في السـاحة ولكن غير قابلة للاطلاع عليها، ولِمَا رفض الرجل ضـمِنًا على طلبِ التفرج عليها!

الحل الجديد هو رؤيتها بسـرية، وعلى هذا أخذ ورقةَ الموعدِ المقررة غدًا وخرج خارج قسـمِ المرور وإذا بالكديد عند الباب ينتظره، فأشـار له إشـارةَ الانتظارِ بكفه الأيمن حتى يخبره ألا ينصرفَ، ودار دورةً استكشافيةً كاملةً حول المبنى حتى لمحَ قسم الحجز في زاوية المبنى من خلف، وكانت هناك جموعٌ من السيارات، وإذا به يلمح رجالاً ليسـوا بعسـاكر بل مدنيين معهم حبلٌ تُشَـدُ به الجبال من قوته، يجرون أمرًا تحجبه السيارات عن ناظريِّه!

قرر القفز لأن الارتفاع ليس حادًا بواسـطةِ مرفقيه رغم ضـعف جسـده بسـبب الشـعرة في معصـميِّ اليدين التي قوضت حركته، والأدوية التي سـكنت جسـده، تسـلل خِلسـةً فوق الجدار بدون علم أحدٍ، وخطا خطاهُ بين السيارات المحجوزة حتى وصل للنقطة العمياء التي أعمته عن رؤية المسـحوب مع الحبل، فكانت المفاجئة أنها سيارته!

إن ما خُفِيَ ذكره هو أن الحُوار عند اصطدامه دخل على الراكب الأيمن بالكامل وعلق في المرتبة حتى قضى نحبه، وكان صغر الحُوار هو الذي جعله يحوز حيزَ مرتبةِ الراكب الثاني فقط، ولما كانت جموعُ الرجالِ تحاول سحبه من مكانه، يأس بعضهم حتى أنصرف.

أول ما يتبادر بذهن أي شخصٍ وأولهم قائد المركبة أن رفيقه توفاه الله، لكن لماذا لم يذكره التقرير عن الحادث، هل غفلوا عنه، أم تعمدوا في نسيانه؟

لم يطل النظر حتى سمع بعض الرجال يحادثون بعضهم، حيث سمح له قرب المسافة باستراقه السمع عليهم، كان الرجل الأول الذي يحمل كتيبًّا صغيرًا يدون ويسأل من معه:

- حسب سجلاتنا إنها الحادثة العشرون التي تحصل على هذا الطريق، وعلى نفس النمط.

أما الآخر يتساءل:

- ألم تجدوا لقرن الشيطان أثرًا؟

- لا، فقط...

كلام غير مسموع.

- اذًا، تعرفون ما عليكم فعله، عملية التحديث وإخفاء للدلائل.

أنتظر تعاقب الليل والنهار حتى ذهبت الرجال، فنسي أن هناك سائقًا ينتظره حتى تخلى في المقابل عنه في نهاية المطاف. حلّ الليل

عندما دخل الشــفق ومرت عليه ســاعتان، إذا بالرجال قدروا أخيرًا على إزالـة كـافـة الـدلائـل عن الخردة المتهـالكـة والمحملـة بـالحُوار المسكين ثم ألحقوا عملية التحديث باستئصال بقايا الدابة الصغيرة عنه.

عندما بلغ الســيل الزبى وتأكد من خلو المكان من الرجال عن سيارته التي كان لم يشفق عليها عندما أخبروه في المستشفى بأنها ذهبت تالفةً حتى رآها بنفســه وتذكر اليوم الذي اشـتراها قبل سـبع سـنينٍ من اليوم؛ بفضــل ترقيته التي أعلَت أجرته وسمحت له بتحمل تكـاليفهـا التي كـانـت من نوع دفع ربـاعي ذات الحوض والغمـارة الأحادية، وكان من أوائل المشــترين عندما اســتوردتها الأســواق المحلية من الشــركة الأم شــركة جيب الأمريكية التابعة لجنرال موتورز.

وجد آثار الحُوار الواهن على المَرتَبة اليمنى، وتفحص الســيارة لعله يتذكر شــيئًا طُمِسَ عليه، زاد الليل من طمسِ الذاكرة التي يعاني منها، فلم يســتطع إيجاد تلميحات، فقرر البحث عن فانوس ربما يجده على مدخل الباب أو في الشــتات من حوله، تمشــى قليلاً حتى وجد ضــالته معلقة على مدخل الســيارات، فنهبها ورجع إلى مكانه المطموس وهو يرنح يمنةً ويســرةً متأثرًا من طاقة مجهولة وربما نتاج الأدوية.

فانوسٌ وزنه أقل من نصف كيلوغرام ومع ذلك تهيأ له أنه يحمل بعيرًا؛ بسبب إصابةٍ عرجاءَ في المعصمين تبدل حاله من رجلٍ قويٍّ صلبٍ إلى واهن لا يصبر على ثقلِ أصغرِ الأمور، واقعة تظهر ضعف الأنسان مهما كان جبروته سيسقط كسقوط الملك العظيم نمرود عندما مات من بعوضة حشحشت في رأسه ٤٠٠ سنة.

كان الفانوس مساعدًا في ظلمة الليل الحالكة، وعندما وصل للسيارة كانت فقط الدماء هي التي تغطي السيارة، وبين ناقل الحركة وجد القلادة المرجانية، ولكن في أعقاب ذلك أشتم رائحة بقرب السيارة في الجهة الأخرى، وكانت ريح تعفن جيفة في بداياتها الأولى، لحق الرائحة ثم أضاء من حوله وهو يسير وإذا به يقّرب الفانوس إلى خيشة تغطي جسدًا ما، ولما رفع القماش وجد جثة الحُوار التي بدأت تفرز رائحةً عفنة وفيها أمر مريبٌ داخل أحشائها!

عظامُ الحُوار في منطقة السنام فُقِدَت، وعظام الفِقار أُخِذَت، لم تكن من فعل الحادث على الأطلاق، حتى صغير البشر غيرُ المميزِ يقدر على استيعاب أن الصنيعة هاته هي صنيعةُ فاعلٍ أراد التمثيل بالجثة أو ربما الأسوأ!

في وهلة، ظهرت ومضات تشير إلى الذكريات الميتة، لقد تذكر أخيرًا، وعادت الذكريات المرعبة للحياة، فأنطفأ الفانوس وحدث خسوف للقمر فجائيًا، وبعدها رأى شهابًا وكأنما أزاح الفاعل المفتعل لهذا الخسوف القمري!

ولكن فات الأوان حتى أغمى عليه بسبب ارتفاع ضغط الدم الناتج عن آثار خسوف القمر الخطيرة على البشر.

بعد صحوته من غفوته الفجائية وإذا بجموعٍ من العساكر فوق رأسه متألبين حوله في شكل دائرة حتى أفاق، حملوه لغرفة التحقيق وهو في أسوأ أحواله، وسأله المحقق:

- السلام عليكم، أعلمت بأنك مكبوشٌ عليك في أحد زوايا حجز السيارات، وهي ليست جريمة عظيمة وإنما جريمة عندما يكون لها مغزى، ما اسمك؟

- اسمي جمعان... السبيعي، ولكن يا حضرة المحقق اتهامُ عسكريٍّ يعمل مثلكم في القطاع العسكري بالحرس الملكي أمر أعوج، لا نية لي بالضرر على الممتلكات العامة للدولة، والخاصة للشعب، كل ما في الأمر أني رغبت بالاطلاع على سيارتي.

- أي مركبة تتحدث عنها؟

- مركبتي من نوع جيب، اصطدمت بها حوارًا وتضررت السيارة وأنا فيها، والندوب على وجهي ومشيتي العرجاء والشاش واللصقات الطبية خير مثال.

استغرب المحقق، ودخل فيه حيرة من كلام هذا الرجل، حتى قرر الخروج ومحادثة الأفراد العساكر حول الأوراق ومداولتها:

- سلموني كافة الوثائق والتقارير حول هذا الرجل.

- سيدي، لا نملك عن هذا الرجل شيئًا سوى أنه يدعي أن له سيارة عندنا ولا نملكها.

رجع المحقق إلى غرفة التحقيق للتعليل حول سبب وجود هذا الرجل المصاب في ساحة الحجز، ورافضًا ادعاءاته حول أحقية مركبة مسجلة باسمه:

- لم نجد لك سيارة باسمك، ولا أي تقرير عن الحادث كما تدعي.

كان سيزل لسانه في طرح السبب الأصيل في حالة إغمائه وهي خسوف القمر، ومن كان ليصدق أمرًا كهذا، وعلى كل حالٍ أستمر التحقيق من أسئلة عن ذاته إلى عمله وصولاً إلى حالته الصحية، فلقد أرسلوا مرسولاً إلى مستشفى الحفيرة حتى يحضر تقريرَ المريضِ الطبي.

عندما وصل التقرير وجدوا فيه إقرار مشكلة خلل في عمل الدماغ، ولكن لم يجدوا الطبيبين الذَين عملا على حالته، مع هامش بسيط يطالب بدفع غرامة التهرب من المشفى وأنها عقوبة حسب قانون المرضى الجديد.

لم يعاقب على التعدي على الممتلكات العامة؛ لشفاعتهم على حالته صحية والعقلية، واتخذوا له سبعين عذرًا، لم تكن حالته الصحية متوازنة، والأهم هو تقرير مستشفى الحفيرة الذي أوصى عدم حجزه وحاجته للدواء المستمر والإشراف الطبي بسبب بقعةٍ

ســـوداءَ في منقطة الحصـــين، ولكنهم غرّموه في تعدّيه على قانون المرضى، سجن شهرٍ وغرامة مالية معزّزة.

الشـــهر الذي قضـــاه في زنزانة الحبس، حاول تصـــور ســـوابقه وتذكر ما شـــهده، وكانت الدويحي تجول في أعمق هواجســـه، وعندها علم أن هناك خبايا تحتاج لكاشـف السـتار حتى يفضـحها في تلك المنطقة، ثلاثون يومًا من العزيمة على فضح الحبكة.

حل موعد الخروج، وعند طلوعه سـلموه أغراضـه التي لم تكن ســـوى قلادة قديمة لا تســـوى قرشـــًا، ولمّا ولى ظهره عليهم جزم أن هناك مؤامرة تجري في هذا القسـم، وأصـحابها متآمرون ومتواطئون ضده، ولكن أصر على حقيقة الوقائع التي عاشها.

بطبيعة الحال لن يجد مركبة تحمله من على ناصـــية الطريق أمام مركز المرور، ولا كديدًا عاقلاً بذاته يقف عند مركز المرور الذي لا يزوره أحدًا إلا مرةً في السـنة، واضـطر أحدُ مجنديّ القسـم أن يأخذه بمركبة الدفع الرباعية المرورية إلى أقرب تجمعِ مركبات وهم في أســـواق الحفيرة، لم يكن عملاً خيريًا من مركز المرور، وإنما رغبةً منهم في سحلِه عن ممتلكات الدولة المصونة.

لمّا نهض من مقعده للخروج من مركبة المرور، شـــد العريف يده وقال، إنه أقرب لك من حبل الوريد، بعدها أمره بالنزول والتشـــبث بالسـلامة.

إن ما حدث من أحداث في الشهر وما يسبقه من أيام كان مريبًا حتى لجبير القلب، ولا غضاضةَ في الاعتراف منه، أن ما حدث له طيلة تلك الأيام العجاف كان من أشد ما أرعبه في كل مرحلة عاشها من مراحل حياته.

لقد رماه المجندُ في أسواقِ الحفيرة، وأصبح لقيطًا يبحث عن متبنٍ في كومةٍ متكدسة من الناس كلٌ فوق بعضه الآخر. إنَّ ما أستجد في ذاكرته هو ذكرياتُ الساحر الذي سبق وأن ركب معه حيث كان يحمل شدادًا معه ولكنه لا يتذكر ما كان يخفيه سوى الخريطة.

تجول في السوق وإذا به يلمح لوحة حانوتٍ تحت مسمى الدويحي، عندها حلت عليه لعنة الليلة التي هرب فيها من المحطة الأولى وقراءته عن خريطة تحمل اسم هاته المنطقة.

دخل الحانوت للتساؤل حول المسمى وسبب التسمية راغبًا في أخذ معلومات عن هذه الوجهة التي حددتها الخريطة، وعندما كلم البائع عن سبب تسميته لمحله باسمٍ هكذا؛ أجابه على أن هذه المنطقة تحمل بحور الذهب واكتفى بالإجابة هذه.

دار في ذلك السوق الواسع، باحثًا عمن تظهر عليه علامات الكبر والتواضع حتى يسأله، حتى لمح رجل كهلاً قاعدًا على بساط يبيع المسابح، عازمًا على الشراء منه قبل السؤال حتى يشجعه على الرد:

- السلام عليكم يا عم، على كم هي أسعار المسابح لديك؟
- الواحدة تساوي ربع ريالٍ واحدٍ.
- سأشتريها ولكن قبل ذلك سأفاتحك بتساؤل عندي يجول في خلدي.
- تفضل يا بني.
- هل سبق ولك أن سمعت عن منطقة الدويحي؟
- منطقة ملعونة، ومن يسأل عنها ملعون، أنصرف عني يا أسافلة السافلين.

رأى الناسَ كلها تلمحه بنظرات قاسية وكأنما هو ليس السائل الوحيد.

- يا عمي أنا مجرد سائل فضولي.

عاند عن الرد وصمت الرجل المسن بنظرات حادة. إن رده غير متوقع، ولقد قالها بنبرة نابعةٍ من فؤاده، إن ردة فعله استجوبت الانصراف عنه، لم يعِ سبب استجابته المبالغ فيها، ولكنه عَلِمَ أن هذه المنطقة لها سمعةٌ سيئة تُذَاعُ في الأرجاء.

لقد خطا خطواتٍ من جانب المسن وأعين الناس حوله، وكأن السوق يحوي آلات وليس بشرًا برمجت على الاستجابة بهذه السلوك، أستمر هذا الوضع حتى خرج من السوق كله، وقرر المَشَيَ بانعراج بسيط بسبب الحادث، وإذا بكديد يلحقه ويتوقف أمامه على

ناصية الطريق حتى زحف إليه راجيًا منه أن يركب في مركبته، لم يستجب له حتى وعده بأن يطلعه على أسرار المنقطة الساحرة:

- مرحبًا، لقد سببتَ شوشرة في السوق؛ ولم تزل حتى خرجتَ عن السوق، يا رجل ما كان عليك ذكر المنقطة الملعونة.

- وما علمي في هذه المنطقة وكراهية الناس لها، لقد ذكرت لي من مسافر ألتقيته، قال إنه سيزورها ولا أكثر من ذلك.

- أظنه لم يكن منّا من ألتقيه، وفي أقصى الأحوال لو ألتمسنا له الأعذار سيكون مجنونًا أو معتوهًا.

- آ... لا أعلم ماذا تقصد بغير البشر، تبادر لي أنه شخص طبيعي، لا أعلم يا رجل، ولكن ما هي قصة هذه المنطقة وسمعتها المميتة؟

- لا أعلم الكثير عنها، إن جدي قد التقى جِنًا من الفصيلة المسالمة التي اِتَّبَعَت الإسلام وخشيت القرآن عندما سمعته في سوق عكاظ، أظنك ستتعجب وربما لن تصدق فكرة تشابه البشر مع قرنائهم المغايرين لهم في كل الصفات، الجن.

- لا لا، سأصدق كل ما تقوله، وكل هذا في صميم فهمي لهذا المكان، لقد عُشتُ معظم حياتي في السفوح القريبة منها ولم أعلم أمرًا كهذا من قبل، عن إرثٍ غامض مثل إقليم كهذا، على ذلك فأنا منفتح لتصديق أو على الأقلِ تقبلُ بعضِ الأوهام في سبيل الفهم.

- مثلما قلت لك، جدي يملك من غزارة فهم أخبار العرب ما تجعله عقيدًا على قومه، لقد قابله في شبابه جِنٌ كان يسأله عن هذه المنطقة، لم يكن سلوكه مطابقًا لأهل الصحراء رغم تلبسه على لبس رجال الصحاري، وكان هذا أمرًا يثير الريبة، وأبى جدي أن يخبره أو يطعمه، فاضطر هذا الجني المسلم أن يعترف باختلاف جنسه عن الإنس في سبيل أخذ معلومات عن المنطقة؛ ثم أخبره جدي عن هذا المكان مقابل صراحته وبعد تأكده من إسلاميته.

- ما الرابط إذًا بين كراهية الناس للمنقطة الغريبة، وبين قصة جدك؟

- يا رجل إنها منطقة تفضلها مخلوقات باطن الأرض، التي حقيقةً لا أعلم سببَ تفضيلهم لها.

- أعذرني على وقاحتي، هل ما زال جدك على قيد الحياة؟

- نعم، ولكنه هَرِمٌ الآن ولم يتحدث منذ ثلاثين عامًا، ولا أظنه سيحدثك على الإطلاق.

- سأقطع الشك باليقين، يجب أن أحاول في سبيل الحقيقة.

- وما نصيبك من معرفة المزيد، فهذه منقطة الجن الخالدة، ومكان مكروه تخلو منه كل علامات الحياة سوى الحيات الجاحرة في جحورها، ابعد عن الشر وعش.

- إنك لا تعلم ما مررت به أنا، لقد فقدت الإحساس بالزمن نتيجةَ ما حدث لي من أهوالٍ، كان من المقرر أن أزورَ عائلتي قبل...

لا أتذكر ما تاريخ اليوم ولا ساعتنا الحالية، تباطأتُ في الوصول إلى مرقدي عند أهلي. أنا بحاجة لفهم القصة حتى أفضحها عن بكرة أبيها، أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

- حسنًا، إن جدي مثلما قلت لك هو مثل الطريحِ في الفراش؛ لا يتحدث ولا ينادي بأمر، ولكن جرب حظك معه.

لا يستطيع المرء نكران ما مرّ به من مصائبَ حيث بدأت مع مفسر الأحلام الملقب بالمامون الذي لم يلتقِ به حتى صادف الثالوث العجاف، والذي قدر له الشاعر الواهن برزق طال أجله لا يحدث إلا للأنبياء، حتى وصل إلى الساحر الناحر الذي أوصله إلى أسرار البشرية الجماء من منطقة الدويحي، إلى الإيمان بأساطير الأولين من جن وعفاريت والتسليم بوجودهم حتى رؤيتهم كما حدث مع آكل العظام الذي أكل عظام الحُوار المسكين وتركه جثة عجفاء بلا عظام سوى لحم قد أكله الدود الآن.

وَعدَه بإيصاله إلى جده الذي لا يبعد كثيرًا عن مسقط رأسه، كانت الطريق المؤدية إلى عقر دار أهله حيث يبيت الجد معهم وعرًا في سهول تغطيها جبالاً، وكان لِطقس الصيف أن جرد الجبال من خضرتها والسهول من أعشابها، دارٌ تجعل الناظر يتبادر إلى ذهنه أن الحياة بسيطة لدى أصحابها.

أَبَيا عن الحديث لمدة ساعة حتى وصلا إلى منطقة مسورة تسويرًا بسيطًا، داخلها بيت مصنوع من الشَعَرِ مقسوم إلى قسمين للنساء

والرجال، وبيت معمّدٌ بالخشب ومسقّفٌ بأوراق، حيث النساء يجهزن الفطور في البيت الخشبي والرجال في بيت الشعر، دخلا إلى المنطقة المسورة ولم يكن لأصحاب الدار نبرة بسبب سروحهم إلى أعمالهم، الصغير منهم يرعى الأغنام، والكبير يعمل لإطعام البيت خشية عليهم من الجوع.

على هذا الأصل، لم يستقبلهما أحد سوى صموت كبير السن، ونبأة النساء في طبخيهن. كان الجد لا يستقبل الرجال عندما يأتون إليه فلا تثريب على الإنسان الذي رفع القلم عنه، واصطكت صفحته في الكتاب، وسمح له بالعصيان، ما دام لا يفقه أفعاله، كان هذا ما حسبوه في البداية.

ناداه حفيده:

- يا جدي، هناك من يحتاج معونتك، رجل تقطعت به سـبل الحياة وعانى حتى يصل لك، إنها مسـألة حياة أو موت بالنسـبة له، أنت مِخلبهُ من بعد الله.

- دعني أجرب حظي معه، ولكن ما اسم جدك؟

- هايف.

- يا عم هايف، قَدمْتُ إليك من صـوب الحفيرة سـائلاً عنك، وباحثًا عن أجوبة لا مجيب عنها غيرك، هل سـبق وأن أُطلِعتَ على معلومات عن منطقة الدويحي جنوب الخرمة؟

لم يسـتجبْ الجد، وكأنه روح بلا جسـد، جمادٌ حيٌّ إن صـح التعبير، ولا ينظر إلى المتكلم حتى يعطيه انطباع عن نفسه في أنه لا يسمع ولا يرى، فربما قد يكون ضريرًا وأصمَ في آن واحدٍ، ولكن حدثت المعجزة عندما ارهصه بسؤال عن:

- يا عم، أنت الوحيد الذي يعلم الخبايا، لقد مرت عليّ ظروف في الأيام الماضية، حتى أني غدوت ناسيًا لعدد الأيام التي مضت هل مرت سـنة أم شـهر، كانت بداية النهاية حلمًا مُكذَّبًا افتريته زورًا على نفسـي وادعيت حدوثه، فلا أعلم أن كان هذا عقابًا لي من الله. واجهت رجلين غيرا مسـاري وربما للأبد، منهما السـاحر الذي يحمل دفتر أبليس وقبيح السـجية الذي وجدته يأكل عظام البهيمة

وأنا في أصعب أحوالي، وكلاهما ياميّان جعلاني أصدق مُسلَّمةَ الجنِ والسحر و...

وفي صفقة ريح أهتز كبير السن من مقعده ورد وكأن أحدًا صفعه:

- هل قلت ياميًّا!

- نعم، ولكن ليس هذا هو مقص...

- إن هذا يغير كل شيء، لقد تحققت النبوءة، كانت مقدرة ومعلومة، فقط الزمن هو من سرعّها.

إن آثار الرعب بدأت تتوجس كبير السن الهزيل، فلم يتحدث كثيرًا منذ سنين عويصة، وعندما انطلق رجعت كافة أحاسيسه وكأنما رجع طفلاً خائفًا من ظله يتودد أحد والديه لحمايته، ولكن ما من مستعطف على كبير سن حتى يحضنه في هذه الحالة.

كل شيء يتمحور حول الياميّينِ، كما تبادل لذهن السائل والحفيد، فقد علما أن الجد يحمل في جعبته معرفةً غائرةً حول طبيعة هذين الرجليين، على هذا عاود الكرةَ من جديد وركز عليهما:

- لا أعلم حقيقةَ هذين الرجلين، رغم أنهما ليسا طبيعيين في سلوكهما، واحدٌ تبادرت عليه علامات التدين حتى أنه أَمَّ بنا صلاة الفجر إمامةً صحيحة، ولكنه سها عندما قرأ لنا سورة الجن، ففي الآيتين الأولى من سورة الجن عندما استمعت الجن لترتيلِ الرسولِ

القرآنَ في ســـوق عـكاظ تعجبوا منه، حتى قالوا إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا ، أما الغريب أنه قال...

- قال إنّا حقًا سمعنا العجب، ردٌ متوقع.

- نعم هذا ما قاله!

- أمـا فيمـا يخص الرجلان والمنقطـة المحرمـة، هنـاك ملحمـة عظمى تـدور حول هـذه المنقطـة وترتبط مع يـام الـذي يرجعون إلى همدان، وليســت القصــة عن قبيلة برمتها ، وإنما عائلة صـغيرة منها نشـــأت قبل قرون مضـــت في الجزيرة العربية، هذه العائلة يؤرخ لها أجدادنا وأتذكر القصة بكامل نواصيها ، وعلى هذا سأرويها لك، وأجزم لك أنك ستفقه الحكاية عن بكرة أبيها ، فاصْبِر معي تُجزَأ.

الفصل الخامس

حُكِيَت قصة عن رجل أعرابي من أعراب البدراء كان يعيش هو أمه في خيمة ورثها عن أبيه بعد وفاته وهُيئَتْ سكنًا له ولأمه في منطقة سهولها ناميةٌ ونخيلها عامرةٌ، تمرح وتبرح فيها الأنعام من الأبقار والأغنام والإبل، وكانوا في عزلة سهلية مغطاة بالجبال حَمَتْهم من أعين النشّابين الجائعين.

أما عن تقسيم الأعمال فكانت الأم ترعى البقر والإبل لقلة عددهما وسهولة القدر على رعيهما البقر لا تخور والإبل لا ترغو إلا عند الجوع وحركتهما قليلة ومقدور عليهما، أما الابن فاعطي زمام رعي الأغنام التي تثغو بدون سبب ولا حسيب، حتى كثرة رؤوسهم تستلزم رجلاً قويمًا في بدنه ونشيطًا في لياقته.

في أحد الأيام وفي وقت كان ما قبل الظهيرة، دخل الأبن إلى الخيمة حيث يرتاح بعد سوقِ الأغنام في رعيها، فوجد طعامه من كسرة خبزة وإناء حليب مقعّر جاهزًا ودعا لأمه في طُهرِ قلبه، وأكمل يومه طبيعيًا.

أتى اليوم الذي يلي سابقه، رجع بعد غيبة مع الأغنام في رعيها، ودخل الخيمة فوجد غداءه كسابقه، فشكر أمه في طهر قلبٍ وأكمل يومه كالمعتاد، ثم تكرر هذا الأمر يومًا بعد يومٍ، حتى أتت أمه تفضفض له تأسفًا عن إهمالها في تجهيز الطعام:

- يا بني، أظنك عالمًا بالأحوال، فأنا كبيرةُ سـنٍ ولا أقدر على تدارك أعمالٍ كثيرةٍ، فالِتَمِسْ لي العذر على سهوي عن حلبِ البقر وعجنِ الخبز لك حتى ينسيا ضـمرة بطنك، ولكن رغم هذا لقد ساندتني في هذه الأعمال فعجنتَ لنفسك وحلبت البقر وما تبقى من الحليب رجعتُ له حتى أطعم به نفسي.

في هذه الحالة لم ينبس الابن حرفًا لأمه، خوفًا عليها من الشك في نفسها، على حسب ما ظنَّ أن والدته هي من كانت تَعِدُ الطعام ولكن أعراض مرض النسيان بدأت تتبلور وربما كبر السن عاملٌ أصيلٌ في ضعف حواسها وذاكرتها لاسيما أن الأيض لدى البشر ينخفض تدريجيًا مع تقدم أسنانهم وهو ما فهمه السلف كل الفهم بتسمية مرض النسيان بالخرف ولكن بخرافاتهم الواسعة.

كانت الخرافات في الجاهلية الممتدة على فترة العصور الوسطى وما قبلها عجيبة كل العجب، كان الملسوع والملدوغ يقلدان بالفضة والذهب حتى يشفيا، والمصاب بداء الكلب يطالب بدم شيخة القبيلة ذاته حتى يتداوى منه، بل الأدهى أنهم اذا شكوا في أن مريضهم مَرَضَ من عفريت يحمّلون بعيرًا بالشعير والتمر والحنطة ويرمونه على شعاب الجبال؛ فإذا نقص حِمله ظنوا أن الجن قبلت الهدية ويلي ذلك شفاء المريض، أما لو رجع البعير كاملاً فهذا دفعٌ عن حِمل البعير منهم مما يُدلِلُ على عدم شفاء المريض!

أما فيما يخص طرقهم في اختبار مرضى الخرف مغايرة عما نستخدمه اليوم، من سبيل الطرح وليس الحصر، أنّ من يغفل عن حشر التعداد على الأغنام ويأتي وهو جالبٌ البهمَ بدون العنز، أو قد يرجع لمبيته ويترك حلاله بدون عمدٍ نسيانًا منه، وتصل الطرق إلى الاختبار من أسئلة توجه للشاعر عن شعره حتى ينسى شعره للتأكيد على نسيانه، أو سؤاله عن مؤدى هذا الطرق القاحط، وتكثر الطرق ولا تتوقف على هذا أبدًا.

تكررت الحادثة مرة أخرى فوجد إناء الحليبِ المقعّر وكسرةَ الخبزِ مُعدَةً، حتى سألها مرة أخرى وجاوبت بنفس الإجابة، قرر اليوم الذي يليه أن يراقبها وهي ترعى الأبقار والإبل فوجدها تطعمهم وتسقيهم ولا شيء مثير للانتباه، وعندما رجع حصّل طعام الإفطار جاهزًا له وكأن الوحي أعد له المأدبة.

علم أن من جهز الإفطار لم تكن هي لأنه سبق وأن خرج من الخيمة وهي ضامية، ثم رجع لها ووجدها عامرةً بالطعام الغير المعتاد، الذي لم يكن من صنيعها لا محالة، وإن كانت صدقةً أو إكرامًا من جيرانهم، إنما أقربُ خيامٍ لهم تبعد من خيمتهم خمس أيام، على هذا الموّال كانت الأفعال لا تجد من يفسرها!

حوادث كهذه تتطلب معرفة الفاعل، لأن من صنع هذا الخير كان يصنعه من خير البيت نفسه؛ أي لم يكن صدقةً بل اعتداءً على حرمةِ البيت بدون إذن صاحبه.

قرر نزع الإذن من أمه حول ارتحاله:

- أماه، وصلني نداءٌ من خيامِ العجيج، وأنا مجبور على تلبية النداء لهم.

ظنتْ الأم المسكينة أن الابن سيحارب في اتحاد خيام العجيج، ومنيّته اقرب مما تصورت وتخيلت.

- يا بني، إن مت من يرعى البهم والماشية غيرك، ولِما تتركني في هذا السهول لوحدي بدون حامٍ؟

- يا أمتاه الرب معك، إن كان النداء للحرب فأنا رافض له، وعندي سبب أهم لرفضه وهي أني أرعى ماشيتنا التي تستقي خيامُ العجيج منّا الفحول للتزاوج مع ماشيتهم، كل ما أحتاجه هو صبرك خمس ليالٍ، وأعدك ألا أبيت عندهم كيلا أطيل.

جهزت أمه الشدادَ داخله أقراصُ الخبزِ كيلا يجوع، والأقطُ لِيَدرأَ به جوعه إذا أحس به، والقِربة داخلها الماء حتى لا يعطش، وحبلٌ مُقرّنٌ حتى يمنع بها جوعه إذا أشتد. خَرَّ على ظهر سفينة الصحراء، ناويًا ألا يقف سوى في خيام العجيج، وكانت رحلةً تميل إلى الاستقصاء عن دخيل الخيمة، رغم أن الدخيل قد يرجع إلى أمه.

مخاطرة كبيرة ولكن ثمينة، في رحلة ستأخذ أيامًا من ذهابٍ وإيابٍ، ومحفوفةٌ بالصعاب والمفاجآت. إذ قد يقتطع طريقه قطّاع

الطرق، أو تلسعه آفةٌ زُعاف تميته في دقٍ من الزمن، أو يموت جوعًا أو عطشًا وهذا الأمر الأخير مستبعد؛ تقديرًا عند البشر قديمًا على بأسِهم في تحمل الجوع والجُبل من صغرهم على أكلِ طعامٍ أقل من احتياجهم حتى تكيفوا.

كحّل عينيه وتدهن حتى انطلق في وقت الظهيرة تجنبًا للسفر في الليل؛ لأن الليل تُروى القصص أنّ من أتخذوه مسلكًا في سفرهم حلت عليهم اللعنات والمصائب، فهو وقت الغيلان التي تتغول للبشر، وقطاع الطريق الذي لا يفضلون العمل إلا ليلاً كيلا تُعرف هوياتهم، والحشاشين الذين سُيرَتْ كتبٌ عنهم في عمليات اغتيالاتهم وتفضيلهم حلكة الليل على سواه.

قبل تحركه بقليلٍ، لحقته أمه راكضةً معتذرةً عن نسيانها سن الثعلب المعلَّق على قلادةٍ حيث يوضع على رقبة الشخص حمايةً له من الغيلان والعفاريت التي تتشكل على هيئة أفاعٍ، فقال الابن الشاب لأمه:

- يا أمتاه، سن مخلوق لا يقارب مخلب الخالق، فالرحمن معي وهو يحميني ويحميك.

- نعم تألب ريام معك، وخذ هذه القلادة معك يا بني من أجل أمك التعيسة، كي أنام مطمئنة عليك.

أخذ قلادة الثعلب برًا بأمه، رغم شكه بجدواها، وأخذ يردد في نفسه: كيف لسن ثعلب أن يحميني من آفات البدراء؟ كل

أسناني التي سقطت منذ نعومة أظافري لم تستبدلها الشمس بخير بل هي الشمس نفسها تطلب الرزق مثلما نطلب نحن منها ويأتيها رزقها من مَولى أقوم منا جميعًا.

تحرك أخيرًا بدون توقف إلا في الليل لباسًا وراحةً، والنهار معاشًا وشدةً، ولم ينزل عن ظهر البعير إلا وقت الغسق، أما وقت شروق الشمس يستأنف السفر إلى خيام العجيج.

أوقف البعير حتى يرتاح، ثم لم تلبث السماء حتى خفت سطوعها، واشتعلت نجومها.

جلس موجهًا قبلته على ضوء القمر الخلاب يتمعن ويتفكر كيف لصنم جامدٍ يصنع هذا العالم المبهر في تصويره البديع نجومًا صغيرة ولكنه يعلم أنها ضخمةُ الحجمِ ولم تُصنَعْ عبثًا وفق قوانينَ عشوائية، بل خالقها كيان جبار يفوق هاته الصخرة الزائلة، معلنًا من الليلة هاته وصاعدًا رفضه للوثنية.

استرخى على كثبان ناعمة ونسيمٍ خفيفِ البرودة لا يرتقي للزمهرير، يأكل الأقط ويشرب معه الماء لتخفيف ثُقلِ الأقطِ على المريء. في لحظةٍ فَقَط أصواتُ الرياح وحسب هي المميزة، وإذاً بالأرض تهتز قليلاً اهتزازًا لا يثير الريبة ولكن يزيد النباهة قليلاً، إن نهايةَ القمرِ اليومَ مكتملةٌ في طور البدر وشعاعه يظهر بعض الأجزاء المتناحرة من الصحراء، إنما لم يَقُمْ الرجل حتى حسَّ أن الهزة ازدادت أكثر مما سبق!

خرج من بقعته ولَوح بناظريه يمنةً ويسرةً؛ فوجد ضالته المرعبة، إنها آفةٌ سوداء أكبر مما تصورته البشرية في جُل نطاقِ أطوارِ حياتها، حية ضخمة يُلمَحُ جزء منها من بعيد، كان البعير وصاحبه فوق التلة الصحراوية مما مكنه من رؤيةِ مجالٍ أوسعَ، إنها أفعًى لا مثيل لها، حتى البعير فض من مكانه خوفاً رغم أنه لم يرها بل الهزة هي أعظم على الحيوان، حاولت البهيمة التنصل عن المكان ولزمها راعيها فبرّكها في مكانها خشيةً من هروبها.

في نفسه يردد وفرائصه ترتعد: ما أعظم هذه الآفة، مدبر الحياة الأعظم جُرنِ أنا ومن معي نزوحًا من مخلوقاتك المسبحة لك، عالم العلماء أنت ولينا ومولانا أَضلِلْ عنا معجزاتك في الأرض.

رمى سِنَ الثعلب مكذبًا له، ومصدقًا لخالق الكون وخاضعًا له، ولم يقم عن خضوعه على الأرض حتى خرجت الشمس، حيث اختفت الحية السوداء المرعبة من مكانها، وجُرتها هبت عليها رياحُ الصحاري حتى طمستها. ركب البعير ونزح بعيدًا ولم يبقَ إلا القليل على خيامِ العجيج، وبعد رَدحٍ من الوقت ظهر سوادُ الخيامِ المشعّرة من بعيدٍ وعليها أفواج من الناس كأنما يحومون عليها وما هم إلا بباحثين عن رزقهم.

عندما رآه الصبيان هلعوا إليه كالكلاب الجائرة الطائفة حول اللحمان؛ رغبةً منهم في عرفان الغريب وسؤاله عن سبب مجيئه، فقال:

- أنا جاركم، لا تقفوا أمام البعير القارح.

وإذا برجل يلحق الصـبية حتى يزيحهم من الدابة وراكبها الذي ميَّزه عن رحلات سبقت، ومعتذرًا له:

- الصـبية لم تميزك ومرفوع عنهم الخطأ، أرمِ العقال ليّ حتى أوجه البعير لك صوب الخيمة.

- لم تفعل الفتية الكثير، مجرد أطفال تلهو ولا حرج في ذلك.

- صدقت، ولكن إن لم أكن وقحًا ما هو سبب مجيئك وسبق أن أتممنا معك آخر تجارة قبل فترة وجيزة، في صفقة فحول الغنم!

- إن لديّ رسـالة فحواها دخيل، دخيل أسـتباح أرضـنا ودخل خيمتنا ولم نقدر على رصده.

- وأتيت للمساعدة منّا؟

- لا، ولكنيّ لا أتهمكم أيضـًا، فإن أقرب تجمع قبالتنا هم أنتم، لا أحد سواكم.

- يا همداني، أبناؤنا ممنوعون من السـفر بالبعران؛ فكيف قَدِرُوا على الوصول لكم في جزء يوم؟

- لا أتهمكم كما قلت، وعلى هذا؛ أريد تقليب هذه الحادثة مع كبير القوم عندكم.

وجّه المضيف الضيفَ إلى دار كبير القوم، في خيمة وسعها ثلاث خيام، يبرح فيها السـقاة يرمون الفنجان على البعيد والقريب، ولا تنام دِلالهم ليلاً حتى تسـقي الجميع. عندما دخل على كبير القوم

قام وجهاء خيمة العجيج مرحبين بالضـــيف حتى مر عليهم جميعًا ، وأسند نفسهم على مسندٍ قبالة شيخ القوم.

ســكت الجميع في انتظار الضيف في خبره، واستمر الحال دقًا خلف دقٍ إلى أن كسر أحد رجال القوم هذا الصمت بسؤال الضيف:

- سمعت أنك آتيًا في شـــكية على حق خاص، وكانت هذه الشكية تخص خيامنا في متطفل مجهول تظن أنه منّا!

ألتفت شيخ القوم ورد على السائل المتعجب من رجاله:

- غير صحيح، لم يشتكِ أحد علينا ، منذ أزمنة ولت، وبطبيعة الحال لن يأتيَ شـــخص اليوم يشـــكي مظلمته علينا ، على هذا دع الهمداني يتلو ما لديه.

- أنعمت عليك تألب ريام بالرزق، لطالما كانت خيامكم مصـــدر حياة في كافة المنطقة، نشـــتري منها ونبيع لها ، نتبادل المعارف بيننا ، والأخبار حولنا ، والحماية علينا ، ولم يحصـــل أمر منكم منذ نعومة أظافري، حتى أني لم آتِ تظلمًا عليكم، إنما بطبيعة الأحوال لا قريب حولنا سوى أنتم والآف...

تصلب وكان يغوص في جسمه سمٌ مثل سمٍ زعاف، متذكرًا الحية المارجة من نار، وكيف نجا وقَدِرَ على نسيانها!

أنها آفة ترتجف فرائص أعتى المخلوقات في الطبيعة منها، وزحفها عنه كان أعجوبة مقدرة له، ولكنه عمومًا رجع إلى صوابه متناسيًا وجابرًا نفسه على النسيان حتى يَقوى على الحديث، وأكمل:

- أنتم وماشيتنا، ولا قريب لنا غيركم وغيرها، وعلى هذا لا نية لي بالقول زورًا عليكم، وإنما أتيت للتقصي عن آخر زائر لنا من طرفكم وعلى أحدث جسور أُستحدِثت من طرفكم فيمن يأتي إليكم طالبًا العبور أو التوقف استجمامًا حتى يشتد قوامه إلى الرحيل.

- إن جسور خيامنا لا تصل إلى خيمتكم وماشيتكم، ولا إذن للترحال والعبور إلا مني، ولم يصلنِ شخص يأتمر مني الإذن للسفر، وحتى بعراننا وخيولنا مربوطة في سياجات مسورة لا دخيل أو خرّيج منها إلا بإذن مسبب مني. لكن أستطيع الإشارة إلى أحد نقدر فيه على مساعدتك، أنت ضيفنا وأهم الرجال المتاجرين معهم، ولن نسمح لك بالذهاب حتى تحصل على المعونة منا، سنرسل معك رجلين من شجعان قومنا بنصولهم المزخرفة، معك حتى تسقط الدخيل على قفاه، وتألب ريام معنا.

- حقًّا لم آتِ عبثًا ، كرمكم غطى على عيوبنا ، أتيت شـــبه متعمدٍ في نســـب التهمة لكم، ورددتم عليّ بهذه الواحة من كرم، طال بقاؤك يا كبيرنا.

وعيد الأبن إلى أمه تحقق، فلم يمسِ عند هاته الخيام، وسيرجع بمشـــيئة ربه الجديد إلى أمه لو ارتحل الآن، وهذا ما حدث، وجد البعير مُغدَق بالطعام والماء يكفيانه حتى أسبوع، وأثنين من الفرسان بسيوفهم خلف البعير يسوقونه.

ســاروا ثلاثًا في صــبيحة، قبيل حلول الظهيرة بســاعات طويلة، الهمداني فوق بعيره، والفارســـان على أطراف البعير حراســـةً له من قطّاع الطرق. عندما حلت الظهيرة وقفوا للتموين من البعير ســـقيانًا من العطش ودرءً من الجوع، وحدث حدثٌ لا يتكرر إلا قليلاً.

حدث كســوف للشــمس حوّل نور الشــمس إلى ظلمة، وكأنما حل الليل من جديد، لم ترتب الرجال من الموقف تعودًا على ظاهرة الخسوف القمري والكسوف الشمسي الطبيعية المشابهة مع ظواهر العوا صف والأعجة، وأكملوا سيرهم في ظلمة طامسة صاملين على التوقف عند مقصدهم في رحلة يُتوقَع منها الغرابة.

في مســـيرتهم هاج البعير رغاءً عليهم، وهي حالة حدثت مســـبقًا عندما كان الابن ذاهبًا إلى خيام هذين الفارسين في الليلة الأولى.

ارتعب البعير وكأنه جس أمرًا معينًّا وأدرك الحبكة الملعونة التي اقتربت، نط الابن قفزًا وبرّك البعير حتى لا ينفضّ البعير هربًا

منه، والرجلان متعجبان من صنيعة الابن على بعيره، وإذا بواحد منهم يسأل في دهشة وعلى سماته الفجوع:

- لما برّكت البعير، ونحن في صحراء فضفاضة خالية؟

- إنها ليست بخالية، فيها السواد الخبيث، المتلصص على الضعيف، والمتمكن من الهزيل.

فرد الفارس الآخر:

- أي سواد تقصد؟ إن هذا الكسوف المتزامن، يعايشه منا المعاصر، ويمر علينا كالمسافر!

- يا رجال قوم العجيج، إنكم لا تفقهون الحبكة الخبيثة، إن هناك في طبيعتنا القاحطة أكثر من ماشيتنا ورجالنا، مخلوقات ليست من عالمنا، تترصد أضعفنا وتَقوى على غير المؤمن منّا.

إن بعيري وسفينتي في الصحاري، بطبيعة هذه المخلوقات الرفيعة العُلوية، تتميز في مقدرتها على استشعار البعيد الغريب، إن ما سوف تشهدونه يا رجال، سيغير وعيكم عن هذه العالم الواسع، سيمدد منظوركم القصير إلى أمد المديد، فاصبروا معي واحتسبوا.

لم يفهم الفارسان المغزى من كلامه، وإنما في نظرهم رجل جن جنونه حتى أوقف عليهم قافية الرحلة، وهما مجبوران على الوقوف معه تنفيذًا لأوامر كبير قومهم، وعلى هذا اضطرا للاستمرار على هرطقة الابن في حديثه الخيالي عما وراء الطبيعة وهو يردد لهم ساجدًا - استعدوا ثم استعدوا - بصيغة الجمع وهما رجلان فقط،

موضــحـًا احتمـاليـة شموليـة الخطر إلى كـافـة الحِمـل من البعير والرجلين حتى هو بنفسه.

مر ردْحٌ من الزمن والرجل ســاجدٌ، منتظرًا هدوء البعير، فإذا هدأ البعير اطمأن، ولكن ما زال البعير يرغو بلا حســيب، حتى طفح الكيل لدى الرجلين وقررا إرســال رســول منهما يُنبِّئ شــيخ القبيلة بمصيب المصاب معهم الذي جن جنونه.

حمل الفارس نصله وقِربته وخرج من نقطة القافية ودب إلى إيابه في عقر داره حتى يخبر القوم بما حدث، فهو في نهاية الأمر جندي لا يصــنع الأوامر بل ينفذها حتمًا عليه وإلا كانت عقوبته نفيًا في أقل الاحتمال وفي أقصــى العقاب شـنق حتى الموت. وعندما بلغ منهم قُطر شعرةٍ أشتد رغاء البعير صياحًا ولم يعر له شيئًا لأنه جندي سبق وأن جابه صيحات الحرب المرعبة رعبًا والأعتى من صياح البعير الزائل.

في وهلـة، ظَّن الفـارس أن الأمور على مـا يرام، ولكـن عنـدمـا قطع شـوطًا عن قافيته حتى زال من ناظرِي أصـحابه؛ شـهد أفزع ما رآه في حياته، حتى أصــبح يردد في جوارحه – إن هذا ليس من فوق الأرض بل مخلوق من تحت الأرض فاحمِنا يا تألب ريام – وفرائصــه ترتعد رهبة مما شهد.

سُمِعَت صيحات من بعيد، وقام الابن فزعًا من سجوده يلتف من حوله بحثًا عن الصــيّاح، ولكنه وجد الفارس المتبقي قاعدًا على ركبتيه ينظر على جهة الصيّاح، فسأله:

- أين حلّ رفيقك؟

- أخي وعضيدي وسندي، حتى الغزوات لم تجعله يندب بالصياح على الإطلاق، هناك أمر مرعب في هذه البدراء اللعينة، مخلوق ليس منا بل والرب إنه علينا، يا تألب ريام انقذينا.

- أصنامكم البائدة المتصلبة لا تسمن ولا تغني من جوع، تعبد بشرًا ماتوا من قبلك، فلو كانوا آلهةً لأنقذونا ولكن خالقك الذي في السماء هو المعين.

- أنت رجل مريض ولست في عقلك، تسجد للنجوم وتظن ربك فيها، وهو في الأرض معنا.

أدبر الفارس وحنّ على صاحبه ركضًا بعد السجال، وحَدَثَ ما حَدَثَ مع أخيه الفارس فصاح صيحةً لا تشهدها حتى في الحروب، صيحة رجل احترقت كل خلية في جسده ولم تُغِنه آلهته ولا بمثقال ذرة.

وصلت صيحة الفارس الأخير إلى الابن، وعندها صبر وقال – ربِ أخرجني مخرج سلم وأحفظني أنا ومن معي راجعين إلى قعرنا آمنين – فمرت الآفة المارجة الخبيثة أمامه بطول مهول لا بدايةَ ونهايةَ له، وعرض تبيض منه العيون، ولم تقوَ على القرب من الابن وبعيره حتى هبت بعيدًا عنه واشتعلت نيران الشمس من جديد لتنير سواد الشر من الأرض.

لا فائدة تُذكَر من التحقق من الفارسـين، فأمه أولى منهما، الذي وعدها بالقدوم لا بالتأخير. استمر في الرحلة يسابق الزمن لعله يصـل إلى عقر داره وما زال الخوف يتربصـه بطبيعة النفس البشـرية الواهنة من المجهول.

قُدِّرَ له أن يصـل قبل الشـفق في حيلولة المغرب، واسـتقبلته أمه فرحًا وتهليلاً، فقامت بتجهيز المأكل والمشـرب له، والملبس الطاهر عليه، وإنما ما بعد التعب يأتي الراحة، وفي حالته زاد التعب عليه، لا دخيل قُبِضَ عليه، وفارسـان فُقِدا في العراء، ولم يتحصـل على فائدة مرجوة.

عندما أحضـرت أمه المأكل جرّت الكلام إلى سـؤاله في أول الكلام عن:

- أوجدت الدخيل علينا؟

يا أماه – أراد التعبير عما حدث ولكن جناح الذل من الرحمة كان أقرب له – كان طريقي ميسـّرًا، أما الدخيل لا أمارات عليه أنه من خيام العجيج، وربما يكون من قطّاع الطرق الذي يسـتولون على القوافي.

- ولكنّا لم نشـهد قطّاع طرق منذ زهرة عمري مع والدك حتى الآن.

- الدنيا لا تبقى على حالها ، وقطاع القوافي يبدّلون مواقعهم باستمرار وبلا كلل، إنما خطتي في القبض ستكون محكمة ودقيقة ويجب عليّ أنا وأنتِ الإحكام بها ، والتصرف بناءً عليها.

- أنا معك يا بنيّ، في السرّاء والضرّاء.

- أن الخطة ستبدأ بالتلاعب على الدخيل على أنّا غير متواجدين كالعادة، نرعى ماشيتنا من إبل وبقر وضأن، ولكن الحقيقة ستكون مغايرة لهذا التخيل. سنربط الإبل والبقر في مكان بعيد جاعلين منه مصدِّقًا أنكِ يا أمي ترعينهم، أما الماشية سأجعلكِ تسوقينها وِحدةً وِحدة، أما أنا سأكون في الخيمة متربِّصًا للدخيل البغيض انقضاضًا عليه في الوقت المناسب.

- ولكن ماذا عن حين المؤامرة؟

- يا أماه، إن ما نعرفه عن هذا الدخيل هو تلصصه على السُكنى وقت الظهيرة ، وبغضه لليل بلا سبب، وعلى هذا الأصل سنبدأ العمل بالخطة بعد الفجر وقِبالة ظهور الشمس من مشرقها ، وإنّ الصباح رباح.

ناما حتى ظهرت سمادير الشمس موضحة أن الفجر أنقضى وحل الصبح، فهلع الابن إلى أمه حتى يبدآ العمل على الخطة مبكرًا قبل قدوم المعتدي اعتداءً مرة أخرى كما تبارى لهما. قامت الأم وربطت البقر والإبل في عقر مسوّر، أما الماشية ساقتهم بعيدًا ليظن من يسترق الأنظار عليهم أن الخيمة خالية من أهلها ، وضامية من

حراسها، ولكنه أُعمِيَ عن ضالته وضُلِّلَ عن طمعه من أصحاب الخيمة كيدًا له.

ساقت الأم نفسها خارج حدود الخيمة رعيًا للأغنام، والابن نصّب نفسه خشًّا في الفراش انتظارًا للصعلوك المشرد، إذ سينقض عليه انقضاضَ السباع على الضباع.

مرت جزية قليلة من الزمن حتى بدأت خشخشة في خلفية الخيمة تخشخش، وكأنما شخص يبحث عن شيء ولم يجده، حتى التف من خلف الخيمة إلى شرفة الخيمة ووقع في الكمين المكيد له خصّيصًا، فقفز الابن وإذا هو يُفجَع مما رآها!

- من أنتِ يا امرأة؟

صرخت الآنسة فجعًا وردت:

- شهدتَني ومنك الزواج، وإذا رفضت؛ ستطاردك أخوتي حتى تقبض على روحك ولست عنهما ببعيد.

- لم أختلِ بكِ، أنتِ الدخيلة وعلينا محاسبتكِ في اعتدائكِ على حرمة أرضنا وخيمتنا.

- الخالق يعلم أني لم أنوِ الشر لكم، كنت أعلم بحالك أنت وأمك الطاعنة في السن، فلا معين لكم في تحضير الطعام، وإنما نويت نيةً حسنة معكما. أما الزواج فهو مطلب عليك وإلا آذتك أخوتي، ويجب عليك أن تأتي.

- لا أعلم، إني لا أعرفك يا امرأة، وإنها خطوة كبيرة عليّ، لدي ماشـــية ودواب تحتاج لعناية مني، وأمي لها حق علي، وفي نهاية المطاف ما زلت لا أثق بك.

- لا تسـرح بعيدًا في الأعذار، أنا سـأقيم معك، وأسـاندك نهاية عمرنـا، أمـا عن مكـاننـا فلن تجـده على الإطلاق في هـذا الحيز الواســع العلوي، إنَّ عقرنا تأســس في مكان بعيد تحتاج إلى دابة خاصة للوصول له.

- كم يبعد من هذه الخيمة؟

- بسفنكم البسيطة ستأخذ منك الدهر بأكمله، أما بسفننا سنصل في دق زمن ولن تشعر بتعب الطريق، والآن أنا على عجلة من أمري، عشيرتي تحتسب وقت ذهابي وإيابي، سآتيك غدًا.

ذهبت الآنســة خلف الخيمة وعندما لحقها؛ لم يجد لها أثرًا، وكأنما ابتلعتها الأرض. كانت المرأة طويلة القامة طولاً يندر أن ينطبق على المرأة، وجمـالٌ مغـايرٌ للمقـاييس الطبيعيـة وكـأنهـا شــكلت هي وجهها بنفســها، أما عيناها فكانا يغطيهما الكحل الأحمر وشــعرها شــديد الحمرة، حيث افتعلت فعلها إعجابًا بهذا الابن المغوار، وربما عذرها في الحنِ عليه وأمه كان حياءً لكيلا تصبح سلفعةً أمام رجل غريبٍ عليها.

طال النهار والليل ووالدته لم تصــل، حيث رغب في اطلاعها على ما حدث وأخذ رأيها، ولكن ما حدث أن الغنم رجعت وهي لم

ترجع. هلع الابن خوفًا إلى الصحراء المظلمة وهو عالم بما حدث لأمه ففي أقل الاحتمالات أنها سقطت من كثرة المسير، قاتلاً نفسه بالندم على توسيطها في رعي الأغنام.

حلّ الغسق، واسودّت الأرض حيث تنعدم الرؤية، تردد الابن في الذهاب متذكرًا أهوال الليل وما تحمله من خبايا مريعة، وما الآفة المارجة إلا غيض من فيض يتوالد في الليل. إنما أمه ضاعت في الصحراء وربما تكون جريحة في استغاثة للمساعدة؛ وعلى هذا انطلق راجيًا أن يجد أثرًا يدله على أمه.

لمح نارًا تشتعل تدليلاً على نقطة تجمع ربما في كفنها قطّاع طرق والآنسة التي خطت عليه تكون منهم، وتردد في التقرير حول فائدتهم – لا أحد سواهم – حيث جزم أخيرًا على التوجه إليهم، وعندما اقترب حست به الجماهير حتى فزعت، فسبقهم بالرد:

- لم آتِ لافتعال الشر، أتيت بسلام باحثًا عن أمي – وعيونه تتوجس اليمين واليسار منهم حتى يكشف حبكة السرقة التي ستطاله ولكن لا أثر لأي امرأة – كانت ترعى الغنم، حيث الغنم راجعة وهي خابية لا أعلم مكانها.

رد أحد الرجال الذي ربما يكون قائد هذه القافية وربما الحملة المجهزة للسرقة:

- على مهلك، قبل الاستهالة من أنت؟

- أنا الهمداني.

- وأين هي ديارك؟

- أنا – تخوف من ذكر خيامه لعله يصرف انتباههم لو أرادوا سرقته في غيابه – من خيام العجيج.

- نعم، خيام العجيج يذاع صيتهم بالتجارة مع أبعد الأبعدين.

- الآن نبدأ في المتن، متى غدت أمك عن ناظريك؟

- لقد كنت أرعى الإبل والبقر وأخذت أمي الغنم لتحمل المشقة عني في وقت انشغالي مع رعي الماشية الأخرى، وعندما أنتهيتُ، ترقبت مجيئها ساعات من عجاج ولم تأتِ إلا الضأن والمعزى بدون راعيتها؛ وهنا ثار رعبي خوفًا عليها وأنا عالم أن مكروهًا أصابها.

- إذًا ما نفعنا ما دام أنك من رجال العجيج ذوي الفرسان السباع! نحن مجرد مرتزقة نبحث عن لقمة عيشنا في الاتكال على معونة القبائل التي ترغب في جنودنا عند الحاجة، حاجات في سبيل الحرب عندما قيامها لن تجد رجالاً تحمل النصال والرماح كمثل رجالنا، وفي سبيل الحراسة لا عيون تتحمل السهر غيرنا ولا قلوب تصبر على الفظائع سوانا. يا رجل نحن لا نعمل بدون مقابل.

- إن مقابل عرق جبينكم سيكون من ماشيتنا، فلدينا النياق والبعران والبقر والضأن والمعزى، خيارات كثيرة مقابل مساندتكم لي.

- مقابل كل رجل من رجالنا بعير واثنان من الضأن.

ضحك ظانًا أن الأبن لن يضّحيَ بهذا الثمن.

- أوافق على شـــرطـك، كـل مـا أحتـاجـه هو فـارس منكم يخلصني من علتي وَهَمِي.

أتـاه أحـد المرتزقـة بجواده وطلـب منـه الوثـب على الجواد حتى يستقر فيه ولا يسقط، مرددًا له:

- ثِب يا رجل على الخيل ولا تخف.

- أتقصد الركوب عليه؟

ضحك الجميع من سوء تقدير الابن لمعنى الكلمة موضحين له:

- إن الركوب وحده لا يكفي للاستقرار على دواب الحيوانات، إنك راعٍ لدواب كثيرة، وفي حالة البعران من الواضـح أنه سـبق وإن ركبتَ على البعران فكيف قمتَ بذلك؟

- أبرّك البعير حتى ينزل إلى مستوى جسدي، وبعدها أطمر عليه حتى أجعله مَطيةً تحت جسدي.

- إذًا في حالتنا لا نستطيع تبريك الأحصنة، فهذه ذوات الحافر، وتلك ذوات الخف، وإن لم تثب على الجِياد؛ فلن تستقر أثناء الحمل، لا سـِرَّ يُنقر في الوثب، كل ما عليك فعله هو القفز قفزةً ملوحةً في الأعالي، فإذا فشـلت لن تسـتقر على الحصـان، أما لو نجحت في القفز؛ فإنك لن تحتاج لتعديل جسـدك. الخيبّة كلها في عدم تعديل الجسمان بعد الوثب.

وثب الابن وثبًا شديدًا ، ربما يعزى السبب لارتفاع ضجيج الدماء في جسده إما خوفًا على أمه أو ارتعابًا من فظاظة الآفة المارجة الهائلة التي سيتنبأ بها.

لما انطلقا ، اقترح المرتزق على الابن حيلةً تقليديةً لقصِ أثرِ أمه ، ومنها ستُعرف الحبكة بكل تفاصيلها :

- هل تدل آخرَ مسارٍ اتجهت معه أمك؟

- المسار الذي قدمت منه إليكم، كانت والدتي ترعى الماشية ، وأنا على جزم أنها لم تغير مسارها ، بل أنها لم تبعد كثيرًا.

- إذًا ساعدتنا الآلهة. إن البحث في هذا الكثبان الغارق بالظلمة لأمرٌ مستصعب على الأنفس، حتى أعتى الرجال أمثالي لا يقدرون على مجابهة خبايا هذه الصحراء اللعينة.

ظن الابن أن المرتزق المتفاخر بنفســه يدرك ما تحمله الصــحراء من آفات كالحية المارجة الخبيثة، وعلى هذه البينة رد:

- ما لها الصــحراء، عشــنا معها عصــورًا ولم نواجه خطرًا غير البشــر – يحاول أن يجس النبض لعله يســتخرج مدركات الرجل الصحراوية – ولكن ربما تقصد شيئًا آخر أجهله أنا؟

- يُقال أنها خرافات من جموع الناس، ولكني أصــادق على حقيقتها، مخلوقات يا رجل، مخلوقات ليســت من عالمنا، بل وحوش تتنكر على زي إنس حتى إذا فاجأتها تخرج لك على هيئتها الأصيلة.

- إن قلت لك أني مصــدقًا لما أنزلت من حديث، فما هي هيئتهم الحقيقية لو تنكروا في الأصل على خِلقةٍ بشرية؟

- لو كانت مخلوقاتٍ مســالمةً؛ فإن أهل الخبرة في خبرتهم فيما وراء الصحاري والجبال والسهول يسمونها الجن ومفردها جنيّ، أما المخلوقات المؤذية والتي تضــرك أكثر مما تنفعك تدعى عفاريت ومفردها عفريت.

ويكمل المرتزق:

- إن أدهى هذه المخلوقات كيلاً وأقســاها جرمًا هم الغيلان المتغولة، التي تأتي في الليل على صــورة شــعاع كأنه نجم مشــتعل، يجذلك إليه حتى يضــرك في نفســك ولن تنجو معه أبدًا مهما قويتَ عليه أو كثرتم عليه، مخلوق مفزع وخطير بحق. إن دواهي العرب قسموا هذه التصنيفات إلى أكثر مما قلت لك، ولكن لا أقدر على

الاستذكار إلا فيما سمعتَ أنت، وعلى هذا يجب أن نصير نابهين في خطانا وبحثنا، وأن نستعمل الطرق الشعبية في تتبع المفقودين من قومنا وغيرهم.

- بالنسبة لي، لم تظهر لي مخلوقات كما ذكرتَ، ولكن تشكلت لي آفة عملاقة غطت عليّ كل مساراتي حتى قبعت في بقعتي راجيًا المعونة من السماء لتنقذني، حية لونها أسود عرضها لا يحسب وطولها لا يقدر، ابتلعت اثنين من الفرسان كانوا بصحبتي، ويا لها من أحداث مخيفة.

- إن من هذه المخلوقات ما يأخذ أشكالاً عديدةً، منها أشكال الحيوانات كالقطط والثعابين، وصولاً إلى هيئات البشر من نساء ورجال وأطفال أيضًا. على هذا، فأنا أصدق روايتك، وهناك الكثير أبشع مما قلتَ وقلتُ ينتظرنا.

أما الابن فلقد استرجع ذكرى الدخيلة عليه، دخولها من اللامكان في اللازمان وخروجها بنفس دخولها زاده شكًا.

حرثا الصحراء سائرين إلى المسير الذي مشت إليه الأم ولم تعد، واكمل الابن الحديث:

- لقد ألزمت علينا أتباع الطرق الشعبية في تتبع فقيدنا! كل ما يدور في خلدي هو أصول هذه الطرق الشعبية، فما هي بالتحديد؟ وكيف ستفيدنا في إيجاد أمي؟

- لدي في جعبتي طريقة كنا في السابق نستخدمها حتى مع الأحياء القابعين حولنا لنجزم على حياتهم من مماتهم، ولكن لها مثالبها الموجعة وأنا عن نفسي أبغض ترويضها إلى درجة تجعلني أبغض هاته الفكرة.

- ولما تبغضها؛ ما دام أنها تظهر الحقيقة لنا! وما كان مقصدك عندما أدركت لي أنكم استخدمتموها مع الموتى منكم، حيث إن منيتهم حلت ولا حاجة لاتباع الطريقة!

صمت المرتزق قليلاً، حيث إن طرقًا كهاته، تعطي إقرارًا نهائيًا في تحديد مصير المفقود حسب ظن الناس وقتها، وجهلهم في تقدير حقيقة الأمر الواهن عن الواقعي، وعلى هذا رغب في اتباع هذا المذهب الضامي وتصديق المرتزق حتى ولو كان في سبيل قطع الشك باليقين.

يرد المرتزق:

- لن أطيل الكلام عليك، إن هويت في سلك هذا الطريق فلا عودة معه. هل حقًا ترغب في ملاحقة أهوائك رغم احتمالية تدميرها لك؟

- لم أرفض العرض هذا، وما زلت مُصرًا على استحضاره إلى مشهد اليوم لعله يفيدنا في تحديد أثر والدتي، وارجُ أن تستعجل في تذكر طريقة أجدادك؛ الليل طال علينا، وطال عليها وهي ربما تكون مرهقة، فربِ احمها.

استهل المرتزق في ذكر أسلوب اتبعه أجداده عندما كانوا يفقدون أصلاً أو فرعًا منهم؛ يغدرون القدر بالذهاب إلى بئر سُيِّقَ لهم على مر العصور أنه بئر داخله جسر يجسر السمع بين أهل الأرض وأهل النعيم والجحيم على سواء، ومن خلالها يعرف أمران.

الأمر الأول إن ناديت بالصوت على فقيدك — ويجب أن يكون بنفس الاسم الذي سمته أمه به وليس أباه — ورد عليك هنا تعرف حقيقة مفجعة، وهي موت من تبحث عنه وذهابه إما إلى أرض المحرقة أو إلى أرض المقامة.

الأمر الثاني - هو المستحسن - ألا يلتجأ ردٌ لك، وهنا تقاوم المثالب وتذهب ساعيًا إلى إيجاد من تبحث عنه؛ حيث حقيقة وجوده تم تأكيدها.

بعد كل هذا الوصف السابق للشرح مرورًا إلى تفسير حركيّته إلى التنبؤ بالنتائج التي تكون ختام الوئام، وحسب وصف المرتزق فإن هذا البئر هو السحر بعينه.

عقّب الابن على المرتزق متسائلاً عن هذا البئر، فرد الفارس المرتزق:

- بئر الهداج، الذي ما زلت أتذكر بيت شعر لا أستحضر إلا نصفه:

بين بياض العظام يفيض هداج.

- هو في الأصل بئر فيه من الماء العذب ما يشبع جماهيرًا، ولكن طال الزمن عليه واستهلكته رجالات من قبلنا حتى بقي من الفيض غيضٌ تسلل إليه أجدادنا ونهبوه حاجةً إليه لا إسرافًا.

- وأين بئر الهداج هذا؟

- من حسن حضك أنها في منطقتنا الأم، تيماء.

لم يكن الابن الهمداني من مصدقي خرافات الأعراب الزائلة، فحتى الأصنام لم يسجد لها من تألب ريام وغيرها من الوثنية الصلدة؛ ولكن في قطع العذل تقوم الكبائر في سبيل إراحة الضمير، وعلى هذا المنطلق لم يتردد في الموافقة على خرافة بئر الهداج:

- إذًا توكلنا على الخالق الهادي.

غيّرا مســارهما وســلكا طريقًا محدبًا أودعهما في رحلة أخذت أيامًا لا تحصــــى حتى وصـــلا إلى البئر العتيق، الذي تظهر عليه علامات العتاقة والقِدم. تبلورت فيه أجيالاً ســلفًا عنهما حتى قضــوا على ما فيه من عذب إلى عدم.

أردف المرتزق مسرعًا إلى تنبيه الابن:

- ســيحثونك على القفز في البئر؛ متباهين بجنة الأرض عندهم، لا تســتســلم لتلك الأفكار وحاربها كالفارس المغوار الذي يجابه العربان بلا كلل وملل.

ورد الابن متعجبًا:

- ماذا تقصد بهذه الترهات؟

- أن كنت شــديد البأس لن يقدروا عليك، أما مغلوب الحال لا مخرج له.

لم تكن هذه التعقيبات ســابقةً، بل أتت لاحقةً متأخرةً، حيث لم يصدقها الهمداني لكونها باطلة مدبسةً على خرافة.

وعندما مد عنقه حتى ينادي أمه، يا قطوف حتى رد عليه صوتٌ سمعه في صغره إبان نعومة أضافره ولم تكن أمه:

- أهلاً يا بني، أنت وصــلتَ لمبتغاك، وأنا هنا لأنجدنك من ورطتك، هلم عليّ في جنة الأرض؛ فأنا وأمك بانتظارك على نارٍ أحر من الجمر.

- يا أبتاه، ذرني فأنا وحيد بدونك، فقدت أمي على غيابك، وخسرت الحياة بعد مماتك.

- أشـــهد أنك من صـــلبي، تذهب الأنعام ولن تذهب عني، اقدم للحياة معي.

محادثة هوجاء بين أبٍ مشتاق وابن لهفان، وإنما هو تصور تمنى الابن لو كان صـــدوقًا، بل هو مخلوقٌ خبيث أراد ســـحبه جرًا إلى البئر الغائر حتى يســـلب حياته، ولكن المرتزق النبيه كان نبيهًا في العرفان، فأنقذ الابن من هذه الخديعة البائسة.

- ليسوا من تظنهم أنت، أنها مخلوقات نتنة تتغذى على عواطف الناس المسكينة، فِق من غفلتك.

وصرخ عليه:

- دعني أذهب برفقة أسرتي، أنت لا تتمنى الخير لي.

وفي وهلة حســـرة وصـــمت واعٍ اخذ منه ردحًا من الزمن ليس ببسيط، ختم المقال:

- تمنيـت أن يكون هـذا هو الواقع، أردت ذلـك، وتمنيـت حق التمني، إنما الآن أنا مدرك أني وحيد، في عالم حقير. لقد صاحبتك أملاً في إيجاد من فقدت، بل أني عارف أنها توفيت، ولكن ساقتني الأقدار معك راجية أن تجد خاتمة حســـنة. الآن يبدأ مفترق طريقنا، أما مقابل حملك لي فخذ هذا السلسال المرصع بالذهب، لقد كان

لأمي ولكن الآن هي عند من يسكن النجوم ولن أستغل أموالها على الأطلاق في تحقيق أعمالي بل سأتصدق بها لأنها زائلة.

ادبر والحزن في عينيه، منذ أن رجعت الأغنام بالضأن والمعزى إلى عقر مكانهم؛ أدرك الواقعة القاهرة، في خروج والدته من هذه العالم البائس الوثني. بدأت تتناثر عليه سهوم الهواجس والتساؤلات، التي تحاول إقناعه ببساطة الموقف، ولكن فقدان الوالد أمره ليس بعليل، ووَطؤُه على الشخص مثل النار التي تسيل بين الصخور لا نهاية لها.

ساق نفسه بين الصحراء وهو خالي الوفاض، بدون ماء ولا طعام، حتى الدابة ليست معه إنما خلا سبيلها، في كربةٍ أنسته بطنه ورحلته الشاقة، حتى بعد مرور ردح من الزمن قرر القعود استراحةً في مكانه ولم يبقَ على خيمته من مسافة إلا القليل الهزيل، إذ به يرى شخصًا مستتيرًا من بعيد كأنه يحمل فانوسًا في يديه.

دب إلى جهة النور، ووجده رجلاً ضالاً ولكنه لم يكن مجرد رجل، حيث سبق هذا المرء الغريب بالكلام:

- إن أردت المعونة تعال بجانبي، ولك ما تتمنى وتشتهي.

- والمقابل؟

- كل ما تملك.

- أرفض ذلك، لأني أعلم طبيعة جنسكم، أنكم مخلوقات حقيرة لا تعبأ مثقال ذرة في الناس، ولكنك لا تخيفني حتى ولو أظهرت طبيعتك القبيحة لي.

لم يستمر السجال بينهما حتى فضح الغول عن نفسه، وأظهر أصله من طبعه ولقد كان تحوله دراميًا، حيث لف جسده عنه وعندها بدأت التحولات تظهر عليه، وبجسده يتبدل إلى اللون الأخضر متخذًا من كائنات المستنقع النتنة لونًا له..

والأهم بنبرة الصوت تغير إلى نبرة شخص عملاق أجش:

- هذا أنا، وهذا أنت، رجلان ولكن من أسلاف ليسوا من بعض.

- لستَ ندًا لي، بل مخلوق يائس قبيح تتغذى على من هم أدنى منك.

- نعم لسنا أندادًا ولكننا أكثر تفوقًا منك. إنما أرى بك ما يثير الاهتمام يا بشري، لما لا تخاف من سادة الأرض والأكثرهم عظمةً ودهاءً منك؟ وما الذي يميزنا عنك؟ حسنًا، أنك مجرد رجل بسيط يعتاش على حصاد الأرض النادر، ولا يعمل إلا في جماعة، واهن لدرجة أنه لا يحرث الأرض إلا بالدواب، وضعيف حتى أنه لا يقدر على مطاردة أرنب ليصيدها، والأعتى أنك وبني جنسك لا تستطيعون غلق أعينكم إلا وكلٌ سيفه في مذبح الثاني.

- قد نكون كما وصــفت آنيًا ، وإنما هذه الوقائع لا تســتبدل حقيقة عدمية هيبتكم لدي، إني لا أراك إلا عالةً في الأرض، عابدًا في نهاية الأمر لصـــاقل النجوم الذي خلقك من حلة عفنة، أُعطيت قدرات احسن منا، ولكنك حرمت من نعمة الفضيلة.

- وما هي هاته الفضيلة المزيفة؟

- فضيلة الرحمة التي فيها سخر خالق النجوم للأم محبة الأبناء، وحمـايـة الراعي على رعيتـه، ورعـايـة الحـاكم العـادل على محكوميـه، أمّا بنوكم فلا رحمة صـُقِلَت فيهم ســوى الحقد والكراهية. إن انتفاء النفع منك سيهوي بك إلى أسفل السافلين، لن تجد راحمًا من قومك يعفو عنك في أي صــغيرة من صــغائرك مهما حدث.

لم يستمر الكلام بعد هذا الإجمال، ولكن رد الغول أخيرًا:

- ألا تخاف مني؟ مع أني قادر على ســلب روحك في لمح البصــر وأنت لا تعلم.

- أنك ببســاطة لا تثير أية مخاوف لدي، لقد جابهت من هم أشرس وأكثر متنًا منك، بل الأخطر.

بدأ الغول بالضحك واستهل:

- طبعنا هو الشــراســة، وطبكم هو الخوف. أني أجزم على أن انقطاع وحيِّ الخوفِ منك لا يرجع لكون الفراســة غطت عليك، بل

إن هناك علة أصابتك، غيرت مجرى الحبكة التي كنت أخطط لها ضدك. فِضني بما واجهت.

- هل أصبحت الضباع تصادق السباع! يا للعجب، إن الرتوت أمثالك لا تعرف مثقال خير فيها، الغول الذي سينهب مالي ويسلب روحي، اصبح رفيقي!

- لم أجد فيك من جاذب لي، أنك لعنة حزينة، لم تعد حياتك تهمك ولو كنت قانعًا بالعكس لما قربتَ مني.

إن الذي لم يخطر على باله، أن الغول سبق وأن ترصد عليه والمرتزق حتى عرف طريق عودتهما والذي يؤدي إلى قافلة المرتزقة المليئة بالأنعام، لهذا لم يكن يهمه أمره في نهاية المطاف.

- لقد فقدت أمي. يقال أن شعور وفاة أحد الوالدين أهون مع شعور فقدان الوالدين لأحد أبنائهم، ولكني مع ذلك أجّر نبرات الحزن، وأدمع دموع الفقدان، وأنا عالم بأنهما لن يرجعا فقيدتي.

- يا لكم من ضعفاء يا بشري، إن خصلة الفضيلة كما تسميها هي سبب تعاستكم، إنك ترمي سهوم الجروح على نفسك وهذا لن يرجع لك فقيدك؛ من مات فلا مرجع له. ولكني أكن لك مجاملةً وقد تصبح مصادقةً في حقيقة أنك رجل استثنائي، لم تهب مني ولا حتى نطفةً. مع أن صنفك تتجمد الدماء في عروقهم، وتقف شعور أجسادهم، وتتصلب عظامهم عندما يشهدوني في حلتي الطبيعية، وعلى ذلك أشهد لك بالشجاعة والقوامة.

أخذته رأفة الوقت إلى أن طرح أسئلةً أغضبت الغول النتن:

- إذًا، قل لي، ما هي طبيعة خلقكم؟ وهل لكم أزواجٌ من ضلوعكم كالبشر؟ وأبناءٌ تعيلونهم؟

- إن حدودي معك لا تسمح بالوصول إلى اطلاعك على أسرار بني جنسنا، فنحن أكثر ذكاءً من أن نكشف أسرارنا على آدمي واهن.

أدرك أن استكمال القعود مع الغول مخاطرة لا فائدة منها، وإن حلالاً وماشيةً وصت أمه عليهما توصيةً إلى ابنها، مشددةً في قولها له:

يا بني، مالك فاحفظ، وحلالك فتمسك، إن أقحط البشر في الجماعة هم القواحط على أموالهم.

تذكر الابن وصية والدته، فلبى النداء وأدبر عن دنايا المخلوقات حتى يربح وينجو.

في خضم الصحراء المتصحرة، من حسن حظه أن خيمتهم قريبة؛ لهذا سيصل إليها في ردحٍ ضحلٍ من الزمن، ولكن عندما قدر ثم فكر وجد أن رحلته إلى المرتزقة ثم هجرته إلى بئر الهدّاج أخذت منه ليالٍ رجيمة حسب تقديره.

يردد مع نفسه بأن الحلال الموصى عليه من أمي فَنِيَ، ولا مرجع أو مخرج من هذه الواقعة. ربما ضاع الحلال من الأغنام والإبل عندما

قرر حينها ترجيح والدته على الأمور الدنيوية، فكانت النتيجة ضربةً بين الحجاجين جعلته يفقد أهم ما يجعل الرجال من الغلبة.

بعد مسيرته للرجوع وإذا به يصل قعره، ولكن لم تطل وقفته إلا واصطدم بحقيقة مهيبة!

وجد البهائم قانعةً في شبكوها، الغنم في الحظيرة، والإبل في مراحها وبطونهم ممتلئة وكأنما أحد كان يراعهم في غيابه عندما هج باحثًا عن امه التي قُدِّر لها أن تموت. وعندما دخل خيمته وجد ثيابه جاهزة حيث غُسِلت وطُهِّرت.

وعندما بدأت علامات الغرابة تسيطر على الموقف، بدأ العجب يبطل بالسبب، إذ اتضحت حقيقة الفاعل الذي رعى البهائم ونظف الملابس، أنها المرأة التي كان يظنها لصًا في السابق يتلصص عليهم ويعتدي على حرمة عقرهم. لم يكمل الصمت بقاؤه حتى كسرته المرأة بسؤالها:

- هل تريد أن أحضر لك رغيفًا من الخبر تسد به جوعك؟ فأنا حلبت الغنم وجهزت لك الحليب مسبقًا.

- أقمتِ برعي البهائم طوال هذا الدهر؟

- نعم، ولم يكن تكلفًا مني، بل نجدةً لكَ عندما هرعت بحثًا عن أمك.

إن الجوع كافرٌ كما يقال، لم يأخذ وقتًا طويلاً للرد لسوء حالته، حيث لم ينم منذ ليالٍ، وبطنه تسع بعيرًا.

- لو استطعتِ على ذلك، قَوتكِ الآلهة.

فتحت كيس الطحين، وبدأت تشعل الحطب لكي تصنع للابن الجائع قرصـــًا يجيره من جوع الدهر، ثم دهنت الصـــاج بالطحين المخلوط بالماء حتى نضـــج الخبر فقدمته للرجل، الذي طار بهذه الوجبة البسيطة ولم يبقِ منها حتى الفتات.

استهل الابن:

- لا أســتطيع أن أجزيكِ على فعلتك مهما صـنعتُ، رعيتِ الغنم والإبل، وكســيتِني مما يلطف به المرء بطنه، وعلى هذه الصــنيعة منك، فلك من الرؤوس ما أخترتِ من الغنم أو الإبل جزاءً لك على كرمكِ وفعلكِ المشرف.

- لا تنسى وعيدنا، وأريدها مهرًا منك غدًا.

أدبرت الآنســـة ثم ولت ظهرها له، وعندما خرجت من الخيمة هبت هبوبٌ عاتية وتوقفت بعد ردح قليل من الزمن.

لمح نارًا على بساط الخيمة مما جعله يبصر فزعًا، ولكن اتضح له أن هذه النار مجرد ســلســالٍ يعود للمرأة وحســب، فهرع خلفها ليعطيها غرضــها ولكنه لم يجد شــيئًا على الإطلاق وكأن الرياح التي هبت ابتلعتها بعيدًا!

كان الموقف مريبًا، وهو يردد مع نفســه – أين ذهبت المرأة؟ هل كانت موجودة في الأصـــل؟ - ولم تطل جوانح الأســئلة حتى رجع

للسلسال الذي شهد أنه سلسال فريد من نوعه، وليس مجرد حلية تافهة.

كان السلسال قُطري الشكل، وجوانبه زُخرِفت على هيئة مثلثات صغيرة محددة على إطار القطر، وكان في وسط القُطر ياقوتٌ مشعٌ وكأن فيه نارًا تشتعل داخله.

كانت هذه النار مرهبة، واتضحت حقيقتها عندما خمد هو إلى فراش النوم والسلسال بجانبه، فلم يقوَ على النوم من قوة النور الذي يشع من هذا السلسال الخلاب، وهي يسأل نفسه: ما نوع هذه الحلية الفظيعة! لم أرَ بمثيلها أي حلية تشابهها قط، ربما تكون زمردًا أو مرجانَ، ولكن ما سبب توهجها العنيف!

أسئلة حائرة لم تجد من يجيب عليها، ولكن اصر على رد السلسال إلى صاحبته؛ وعلى هذا عند قيامه من هجوعه ذهب حتى يرعى الماشية، ودعا الخالق، ربِّ شد أزري أنك السميع العليم.

انطلق يجول بالبهائم وفي باطنه يأمل أن يصادف تلك المرأة لعله يرجع لها ما كان مِلكها حتى يزيح عنه حمل مِلكٍ ليست مِلْكه.

مر ردح من الزمن بلا إشارة، حتى صادف ابن سبيل في طريقه ولم يعره أية انتباه، بل إن المسافر بادر التحية حيث ظهرت عليه علامات الهَرِم في السن:

- السلام على الراعي.
- وعليك السلام يا هذا.

- ماذا يفعل رجل ببهائمه في هذا الحيز العتيق، حيث لا توجد نِعم للرعي بها!

- أرعى الأغنام كل نهار في هذا المحيط والبراح، ولا أرى ما تشير إليه يا كهل.

- أمتأكد أنت؟ انظر حولك.

- نعم، صدقت! هذه ليست الأرض التي أحرث منها معيشة غنمي، لقد سقط عني سهوًا مساري المعروف، كيف حدث هذا!

- لا يفيد العتب على النفس بعد قضاء الأمور، ولكن يجب أن تعلم أنك في أرض ليس للبشر فيها قنطرة خيرٍ، فلا تأكل من ثمارها، ولا تشرب من آبارها رشفة واحدة، ولا تتغنى بأشجارها ثم ترتاح عندها.

- وما دام رزقها لا يشملنا، ما يجلب كهلاً مثلك في مكان كهذا؟

- أنا مجرد ابن سبيل يسافر لا أكثر.

- لا أرى معك غرضًا واحدًا يعينك على الترحال يا كبيرنا. قولك وتحريمك هذا، لا يؤْثِرني إلى تصديقك، ولما أخالف كلامك؟ حسنًا، هي ليست ملك أحد سوى مدبرها ولو صادف العكس سأعلم بذلك، إذًا هي أرض للناس جمعاء.

- يا رجل، ايقِن الخفايا من البطون.

ولّى الكهل وجهه، ولكنه لم يهتم بما حذره منه وأدبر ظانًا أنه حادث مجنونًا من مجانين البدراء.

أما الآن فالأهم هو رعي الغنم وملء بطنها إذ هي آخر عطايا الرب والمِلك الوحيد بعد أن فقد والدته.

جال مع البهائم ولكنه في إبان مشيِّهِ حدث وأن وطّأ يده إلى جيبه الجانبي، وحمل في يده السلسال وإذا بشرارته لم تعد حية مثلما كانت!

وكأن نورها انطفأ بريح لا نفس له، هنا بدأت الشكوك والمخاوف تضغط عليه حتى كانت أن تبور منه، ولكن جلافة العرب وصلابتهم لن تجعله يرجع إلى خيمته رعبًا بسبب أحداث عرضية.

لهذا عزم على نسيان قصة السلسال الغريب العجيب الذي كان يومًا يشع ببحور الحياة، فمات في أرض ميتة. وعلى هذا مضى بالبهائم مترنحًا من إرهاقٍ لا سبب له وباحثًا عن ظل في شدة الشمس الحارقة، حتى لمح نورًا في وسط العراء، ومن علمه وخبرته وسوابقه مما شهد، علم أنه فخٌ آخر، وعلى هذا غير طريقه.

سار بضع ساعات ولم يعد يحس بالزمن حتى أن فقد أغنامه. ولما رأى النور مرة أخرى تبعه ووافق على شروط صائد العراء وعقد صفقة سرية معه، بعدها أنطفأ كل شيء حوله.

بعد مضـــيّ وقت، فزع من نومه ووجد نفســـه في غارٍ على أعالي الجبل ولا شيء يضاء حوله سوى القلادة التي معه.

فزع في الأصـل عندما اسـتوحت له أغنامه وما معها من ماشـية تركها خلفه. قرر السـعي خلفها لعله يجد معقلها التي ولت إليه. وفي ثنايا عودته إلى خيمته وجد مشـــهدًا جعله يخاف حق الخوف أكثر مما واجهه من قبل، لقد تغيرت الدنيا وتطاول الحفاة العراة في بناية البنيان.

لما خرج من الكوخ وجد عالمًا لم يعهد عليه من قبل، صـــحا في عالم ليس بعالمه وزمان غير ذي زمانه. في المستقبل حيث أحدثت هذه الصفقة لعنة غيرت بها مجرى التاريخ ونقلته مئات السنين إلى الأمام.

تم محو خيمته عن بكرة أبيها، وبناء محطة من بنيان المجتمع المدني الحديث حيث توفر للمســافرين كافة الخدمات، مشـــى لها الهمداني بدهشة مما يرى، دواب كبيرة تتحرك وداخلها بشر وناس بأزياء مختلفة وأنظف من أســلافهم، وأعراق متجانســة لا يعرف من فيهم العربي والأعجمي.

وهو يحاول استيعاب ما جرى وإذا به يسمع صوت زئير عالٍ وغير معتاد خلفه حتى أجبره الصوت أن يولّي عليه ليرى تلك الدابة الحمراء خلفه داخلها رجلين وكأنما ابتلعتهما الدابة.

وإنما كانت مركبة من صـــناعة البشـــر الحديثة، حيث لا يســـتوعبها رجلٌ رأى العالم الآن بعدما غفا داخل غارٍ قرونًا مريرة كغفوة أصحاب الكهف.

لم يستمر هذا الجمود حتى سمع شخصًا يلحن الكلمات!

صوت ملحن يعظم من شخصٍ يسمى اللّٰه!

والهمداني يبحث عن مصدر الصـوت، ويشـكو في نفسـه تعدد الآلهة، لذلك قرر تتبع الصـــوت ورؤية الإله الجديد المزعوم، وفي طريقه اســـتمر هذا الملحن بالثناء على الإله. اللّٰه أكبر اللّٰه أكبر، حتى وصل إلى ختامه: لا إله إلا اللّٰه!

فتعجـب من هـذه المقول، فكيف للعرب أن توحـد أربـابهـا وأصنامها وأوثانها في شخص واحد؟

تجمع التابعون ووقفوا أمام رجل ظنه الرب المزعوم أو ممثلاً عنه!

ووقفوا يكبرون على الجـدار، حتى جلس الأعرابي يتنصـــت عليهم ليعرف ما الجديد في هذا العالم، عندها اسـتهل الإمام سـورة الفاتحة غريبة المسامع عليه، فتلاها بتلاوة آثرت في نفسه عن فصيلة تسمى بالجن، إذ قد جابهها عدة مرات وهزمها ثم هزمته في الآخرة.

تلا الإمام في الآية الأولى: قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أسـتمع نَفَر مِّنَ الجن فقالوا إِنَّا سمعنا قرآنًا عجبًا

عندها سمع رجلاً من الواقفين متأثرًا بالتلاوة: إنّا حقًا سمعنا العجب!

ثم عاد وقال: يهدي إِلَى الرشد فآمنا به وَلَن نشرك بربنا أحدًا

ورد عليه نفس المصلي: إنه اللّٰه لا إله إلا هو!

عندها تأثر بما شهد، حدّث نفسه: أي رب تخضع له أجلى المخلوقات وأكثرها قسوة؟

عندما خلصت الجماهير من دعوتها لربهم الأوحد، همّ يبحث عن هذا الداعي الذي تحدث من جموع الناس ورد على صاحب الترتيل مصدِّقًا لما يقول، إنما لا أثر لهذا الرجل لكثرة الرجال وعددهم.

خرج من المعبد كما يصفه، إلى مكان جذبه بالرائحة الزكية التي تفتن النفس!

كان مطعمًا يقدم وجبات للمسافرين، حيث أندهش الجائل بين الناس الذي نسوه والعالم الذي نبذه، وعندما دخل المكان تعجب من الزخرفة والبناء الذي بنيت به، متسائلاً عن كيفية بنائها، أكانت حجرًا أم طينًا من نوع استثنائي؟

عرج على كل من في المطعم يلقي عليهم نظرات الفضول فاحصًا لهم حتى يتأكد من واقعه، حاسبًا أنه كابوس خبيث! ومحاولاً القيام منه. ولكنها كانت لعنة أبدية بل نقطة ثابتة لا يحول دونها أي سبيل للتغير.

أصابه الفزع لمّا علم واقعه الثابت، وأنه حقًا غفا مئات السنين، وتغيرت الأحوال والعالم، بل حتى لكنة البشر من حوله وملابسهم

وما يحملونه من غرائب من صـنع العجائب، فلا تفسـير لها لرجل لا يملك من المعرفة سـوى رقعة ثوب مهترئة طال عليها الزمن حتى غدت سوداء مثل العباءة.

الفصل السادس

انهى الراوي حكايته، وقبل قيام مخاطبيه، ذكر نبوءةً تاريخيةً عن رجل في آخر الزمان سـيكون أول محارب في التاريخ عزُم على مجابهة بواطن الأرض والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم.

سـأله جمعانًا عن هذا الرجل وأوصـافه، وما كان للحاكي إلا أن يلتف على السؤال:

- سـيكون نقطة ثابتة في التاريخ لا تقبل الزحزحة ولا لأحد سبيل عليها، قُدّر له ما قُدّر ولا مخرج له سوى الخضوع للقدر وتقبل واقعه المحتوم.

- لما لم تكمل القصة، هل تعمدت إنهاءها مبكرًا؟

- لأن مسـار القصـة مثل وادٍ بين جبلٍ، سـيبقى هذا المسـار بين الجبل وعلى ناصية واحدٍ حتى يغير اللّه الحال بحال.

- وماذا لو هُدِم الجبل على هذا الوادي؟

- ما لبشـريٍّ على تحدي ما كُتب له من اللّه ومجابهة الطبيعة القاصمة!

- يا هَرِم، هل الأقدار مسيرةٌ أو مخيرةٌ؟ وإن كانت مسيرة أهذا يعني أنك مهما صنعت لن تجد سبيلاً لك من علل الحياة المرة!

- يقول اللّه سبحانه في كتابه الكريم: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّـاهَا. الآدميون فيما تقول كافة الأديان الإبراهيمية قبل تحريفها من الناس، أنه مخير في نفسـه، فهو يحمل الخطايا

والصــلاح، ولكن من يعمل على إظهار خطاياه فقط خاب وخســر، ومن ســاهم في إصــلاح نفســه ســيجد طريقاً له في العدول عن نبأه المحتوم، إذاً الإنســان مخيراً في طبيعته وليس في الطبيعة نفســها ما دام وُهِبَ مِلكة التقرير في حياته.

قبل رحيله طلب من الراوي أمرًا:

- هل كانت مقابلتي لك صدفةً أم قدرًا؟

- أخبرني أنت، أتظنك هدمت الجبل على الوادي كما تدعي؟

أدبر في نهاية المطاف وولى عن الراوي، وهو يجول بأسئلة ثقلها يزن جبال أحد لا مجيب لها ولا جواب. أما أحد الأسئلة فكانت: إذا كانت مقابلتي للراوي مقدرة، أهذا يعني لو أني غيرت أحداث القصة المحبوكة سأسلم من تداعياتها؟

لإعمال سؤاله والبحث عن جواب، قرر الرجوع إلا مكان الشر، النقطة التي بدأت معها كل الأحداث، وتمنى أن يمحو هذا الشائبة من حياته، بل هي عصية على البشر لو علموا!

عزم الرجوع على قدميه مستغنيًا عن كل السبل التي خطط لها مسبقًا، وهو متأكدٌ بإمكانية تغيير القدر لو أتخذ الإنسان سبيلاً غير الذي أراده.

حتى عندما وقفت مركبة من أجل مساعدته قرر عدم ركوبها ظانًا أنها من تدبير الأقدار، وأنه لا يوجد شخص يمشي في وقت تلتهب فيه الأرض من الحرارة إلا من أراد تغيير مستقبله.

لم يتردد في رفض أي مساعدة أو أمر يريده، حتى عندما أراد الاستراحة حسب أنها من تقدير النبأ عليه وليس له.

عندما يحاول شخصٌ مجابهة القدر فإنه يظن أن تحوير كل ما عاشه في ماضيه سيغير مستقبله، إنما العلة أن القدر ربما يكون

محتومٌ خلافًا على ما تعلمه الفرد وما عاشه ومكانته الاجتماعية ووعيه للحياة وكل شبر حست به أحاسيسه الخمس، كلها ستكون مواقف تعمل مع وضد الشخص نفسه.

في خطاهِ كان يسعى للرجوع لأصل الجذر ويحاول أن يغير كل ما تنبأ به الكهل الراوي، رغم عدم سماعه للحبكة كلها!

حلت بدايات الشفق وأقترب تعاقب الشمس إلى القمر قرابة شبرٍ؛ وهو لم يصل لمكانه بعد، إذ يطمح لعله يجد الرجل الذي سرق منه خريطة الكنز المزعومة، حتى يعلم خفايا هذه القصة برمتها، ربما لتغييرها أو لتبنيها، ولكن في ثنايا هذا السير، إذا بنور يشير من بعيد وكأنه شخصًا يلوح بكشافٍ طلبًا للنجدة وسواه حتى لم يعره أية أهمية تذكر، ربما ظنًا منه أنه من وحيّ الأقدار له.

وعندما تجنب طالب النجدة، وجده بعد قطع مئات المترات يلوح بمصباحه وكأنه انتقل من مكانه قفزًا، مخالفًا قوانين الطبيعة المنطقية.

موقف كهذا يتطلب مقدامًا يقدم عليه حتى يعلل ما به من علل، وهذا ما جعله يخطو تجاه ناصية المشير بمصباحه، وعندما اقترب منه وجده يبعد أكثر فأكثر، كأنما يسحب نفسه ببساط سحري غير ذي فهمٍ للناس.

ولحقه ثم لحقه حتى توقف صاحب المصباح، وإذا به يقترب منه فيجده بحلٍ طبيعي رغم قدم ملابسه التي تذكره بأشخاص وربما شخصين قابلهما في السالف:

- لما تبتعد وأنا آتٍ لك للتحقق منك، مسالمًا معك وليس مجرمًا عليك؟

- فعل تافه مني ولا قصد مني.

- لما تحمل مصباحًا معك في وسط هذه الصحراء القاحلة، بلا عون ورفيق ولا تبدو عليك علامات قطاع الطرق؟

- أسلوبي أنطوى عليّ حتى أصبحت ألقب بابو فانوس، هذا الاسم الشهير الذي خلّده رواتكم ممن رؤوني وشهدوا عجائبي.

- ومن تكون أنت يا أبو فانوس؟ ولم نذكرك في كتبنا أو قصصنا كما تزعم!

- سقط سهوًا عني أن أذكرك بأنه سيحدث في المستقبل وحسب، إنما الآن أنا خلفٌ على سلفي لم توثقنِ العرب في كتبها حتى الآن، إني يا رجل من مثلك مجرد عابر سبيل ينجد من ضاعت بهم السبل في هاته الطرق الوعرة.

- وكيف تنجدني وأنت لست بحاملٍ شيئًا سوى رقعة ثوبك ومصباحًا يوشك على النفاد!

- أستخدم المصباح لتذليل ظلمة الليل وجلب من ضاقت به الطرق إلي حتى أنجده.

- والمقابل على إنقاذي؟

- قلادة متوهجة معك، فقد أرمها لي وأدلك على مكان تبرح به نعم الحياة كلها.

- وماذا لو رفضت؟

- سترى مني الزعاف المميت على جنسك، وسأبيت الدهر في الصحراء، أجولها بحثًا عمن أقصم ظهره بتحريف طريقه ورده عن الصواب.

- المسالمة يا أبو فانوس لا تكتمل مع إهلاك حيوات الناس، لما تشتت الناس عن طرقهم وتحرفهم عن مساراتهم إلى هلاك لا مخرج ومطلع منه.

- وهل يطالب المخلوق بتسبيب أفعاله؟ لقد خلقنا يا ابن آدم من نار مارجة، سوداء كسواد لم تشهده أنت وسلفك، نُزع في قلوبنا مرضُ الحقد والكراهية للبشرية، المخلوقات الكريهة الواهنة، وأنا عن دربي لن أحيد!

هنا أدرك أن مهمته تغيرت، وأن مصير ثلة من الناس يقف على عاقته في مجابهة شيطان حقير ظهرت أهدافه اللعينة.

- يا ابن النار، أنا ابن صعصعة، واللّه أني وليت نفسي عليك حتى يوم الحساب؛ أن أرد عن الناس أخطارك ممن يتبعونك حتى أصوب طريقهم إلى طريق حسنٍ.

بنى على نفسه وعيدًا لن يقبل دحضه، وما هي إلا مهمة تتطلب المال والعمل والجهد لذلك، ثم خطط كيف يحث الناس على البعد عنه، من يصدق رجلاً يصيح بالناس في الكثبان حتى يبعدهم عن غول يعميهم عن دربهم ويضلهم سواء السبيل.

خرج عن هذه المنطقة صوب الطريق لعله يجد من يقله، وحاول تذكر معالم المكان وحفظ مساراته حتى يرجع له لاحقًا.

وفي اجتهاده لحفظ المكان، إذا بصاحب عربةِ حمولةٍ يحمّل في مقطورةِ العربة علفًا وشعيرًا للأغنام، يتوقف عنده:

- ماذا تفعل في غمرة هذه القاحلة؟

- هل تسأل لتعرف، أم لتشاركني المسير فيها؟

ضحك السائق وعلم أنه في رُحب رجل نظيف النوايا، ولا يضمر شرًا تجاه قائد المركبة.

- اركب يا رجل، وحدثني عنك، فأني أرى فيك علم الدهر!

ركب معه، وكان في جوفه يعلم أن إطلاع غريب على قصة كهذه؛ ما هي إلا مدعاة للجنون والخرافة، ولكن قطع على نفسه وعدًا شديدًا في مجابهة ملعون القاحلة الغول وإخطار الناس عن مخاطره؛ لعلهم يدبرون عنه.

- لست ممن يتبعون أكاذيب الجاهلية، ولكن ما صادفته اليوم يغير كل شيء، يغير التاريخ بأكمله، أنها نبوءة تستحق نبيًا لها، نعم أنا من سيحكي القصة أخيرًا.

- وما هي القصة يا رجل؟ فلقد أربكتني!

- أنها قصة نتنة عن مخلوق يجوب صحاري الخرمة، يلقب نفسه بأبي الفانوس، ذو مظهر قبيح ليس منا رغم تشـابه صـفاته بنا، الغرور والحقد والطبيعة الأنانية، أما أنا فلقد قطعت على نفسـي وعدًا بمعاقبته وصد الناس عنه.

لن يصـدق أحدًا في بداية الأمر قصـة كهذه ولكن عندما حكاها بهذه الطريقة جعل صاحب العربة يصدق مقاله وكأنه يراه بعينيه؛ إيمان تام ليس بجديد على البشر.

- ماذا تحتاج مني؟ فأنا معك فيما أقدمت عليه، فقل.

- ما زلت أخطط وتنقصـني العدة حتى أقوى عليه وأضـربه في مضرب الموت.

- كلما طال الزمن بك وجدت صـعوبة في الوصـول لحلول قاصمة، أسرع الحلول وأكثرها تهورًا قد تكون أفضلها بحكم أن ظروف الظاهرة لم تتطور بعد، وأصـعب المشـاكل تتطلب أبسـط الحلول!

- أخذه السـائق إلى أقرب مكان للاسـتراحة عارضـًا عليه الاسـتراحة ووجبة، وعندما وافق أتى السـائق بالغداء له بدون قسـم له؛ معللاً ذلك بأنه يفضـل الغداء لوحده. ولما خرج، لحقه فوجده يهرس العظام. وبعدها علم ألا رفيق له بعد الآن سوى نفسه.

بعد مرور عقودٍ من الزمن، غدا الآن راوٍ للحكاية، فمن كان بطلها أصبح راويها.

تتضارب به الأفكار والتصورات حول ما جرى في آخر لقائه مع آخر مخلوق حي أو ميت أو كلاهما.

مرت فترة طويلة في آخر غول جابهه ويتمنى ألا يقابل من هاته المخلوقات الكريهة البشعة أحدًا.

بعد صدمته في أعقاب رؤيته لقائد المركبة يهرس العظام؛ علم أنه في حاضرة غول آخر من بني الغيلان، على عينِ من قابلهم في محطات حياته، وكأن في حوزته جاذبية تجذب هالة من الإعجاب حوله، ولكن في حالته لم تجذب له إلا القذارة.

يحكي للناس للمخاطبين قصته، وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن، حيث تبدأ ليلة الملحمة من يوم هروبه من المكان وإيابه إلى نفس ما كان عليه، ابن سبيل شبه ضائعٍ في منطقة ضخمة التضاريس وقليلة التكدس من الناس.

عندما فكر نقديًا في أسباب كل هذه المشاكل؛ خلص أخيرًا أن منبع الخطر بدأ مع إقلاله لضائع السبيل المشرد، نعم الحكاية الخبيثة تبدأ من هنا كما يحسبها.

قرر بعد عناء كثير في التفكير، الرجوع إلى آخر موقع تقاطع له مع الغول، ولكن هاته المرة لم يكن لوحده، مرت السنين حيث قدر على تكوين جبهة من الرجال المؤمنة، جال العالم ناشرًا لمذهبه

الجديد، ومكونًا لطائفةٍ درست الجن وفصائلها حق دراسة وعلُمت خباياها وكيفية قتلها مستخدمين معادن الأرض كأسلحة لهم.

عندما أنهى طرح الحكاية بكاملها، غفا في قصــره، وفي صدى غفوته، رجع له حلمه، أما هذه المرة كان الحلم كاملاً.

كان رجوع الحلم كاملاً، أما في هذا الســياق، الحلم رجع بســماته القويمة وبطلها ليس نمرود الطاغية ولا الملك ســليمان، بل جمعان، في وســط الصــحراء على قصــر عاجٍ يلوح أنظاره ومتعهدًا بالقضــاء على غيلان الصــحراء وأعوانهم للأبد، مرجحًا الجنس البشــري على غيره، ومعلنًا حربًا أبدية على مخلوقات الوشــاح في بواطن الأرض، مطلقًا على قصــره قصــر الدويحي الذي يحمل فيه من الكنوز ما يغطي الأحياء والأموات ومن بعدهم.